



فرائز قانون

بقلم: دافيد كوث
ترجمة: عدنان كياي

فرانز فانون

سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر

فرانز فانون

بقلم
دافيد كوت

ترجمة
عدنان كتيالي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت

الطبعة الاولى
كانون الثاني ١٩٧١

١ - بشرة سوداء واقنعة بيضاء

هكذا يبدأ فرانز فانون حديثه :

« انني اتحدث عن ملايين الناس الذين تُشرَّبوا بدهاء عناصر
الخوف ومراكبات النقص والدعر وروح العبودية واليأس
والذل » .

وهو يستعير هذه الكلمات من ايميه سيزير الشاعر والسياسي
فيقول :

سيزير ، مثل فانون ، « مواطن » فرنسي

سيزير ، مثل فانون ، من مواليد المارتينيك

سيزير ، مثل فانون ، أسود .

« انني اتحدث عن ملايين الناس ... » والواقع ان فانون

اصبح في اواخر حياته القصيرة يعبر عن مشاعر ملايين الناس .
فكان « ينطق » باسم المواطنين السود في جزر الانتيل وباسم
سكان الجزائر وباسم افريقيا السوداء بنفس المنطق القوي
الصلب وحب العدالة الذين كان جيفارا يدافع بها عن الفلاحين
والكادحين في امريكا اللاتينية وان انطوى ذلك على شيء من
المفارقة والمأساوية . فأما المفارقة فهي نابعة من ان عقائد
الرجلين هي اليوم معروفة لدى الاوروبيين والامريكيين اكثر
مما هي معروفة لدى المعذبين في الارض ممن تبني قضيتهم الثورية
واما المأساوية فنابعة من ان الفقر والاستغلال والظلم لا تزال هي
حقائق الحياة الاساسية لدى الاكثرية الساحقة من سكان العالم .
ولا شك انه من الممكن القول بان المبالغة قد جعلت من كل من
الرجلين اسطورة بل نبيا ومثلا أعلى في التضحية والتفاني في
سبيل الانسانية . ولكن عالم اليوم الذي لم يبق فيه شيء في
مكانه الاصيل والذي تسوده الافكار المبنية على العدل والمساواة
والاحترام المتبادل ، لم يعد يتسع لغيبية الانبياء وغموضهم .
ومن هنا نجد ان الرأسمالية هي التي « خلقت » كارل ماركس وان
الفقر المدقع في صقلية هو الذي خلق غاريبالدي وان الاوتوقراطية
الروسية هي التي خلقت لينين كما خلق الاستعمار البريطاني غاندي .

أما « قانون » فقد خلقه الرجل الأبيض .

على ان هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة بالنسبة لقانون .
ذلك انه من الممكن تحديد الفئة أو الطبقة التي ينتسب اليها
قانون من خلال ظروفه ومحيطه ولكن هذا التحديد لا يمكن ان
ينسحب على افكاره وحياته والانسان الذي حول نفسه اليه .
فثمة دائماً مجال للاختيار . ولقد كان الباب مفتوحاً امام قانون
على مصراعيه ليلتحق بصفوف النخبة السوداء المنتسبة اجتماعياً
الى الطبقة الوسطى وهو الاتجاه الذي كان نظام الاستعمار الفرنسي
يتبناه ويغذيه على نحو مدروس . ولكن بعض السجاياء والقوى
الشخصية المميزة للرجل دفعت به بعيداً عن الافادة من
مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة . ذلك انه غدا متمرداً ثم
ثورواً .

هل هو إذن جيفارا افريقيا السوداء ؟ اغلب الظن ان تماثل
الرجلين ليس دقيقاً . فهوية جيفارا ومكانته مستمدتان في الدرجة
الأولى من جمعه بين شخصية المناضل وشخصية العقائدي النظري
ثم شخصية عضو العصابات القيادي ناهيك بشخصية الكاتب
ايضاً . أما قانون فصحيح انه أصبح رجلاً مناضلاً في اثناء ثورة

التحرير الجزائرية ومدافعاً عن قضية تحرير افريقيا الا ان ما
انجزه في هذا المضمار لم يكن عملاً بارزاً . فلقد استند في نفوذه
المتصاعد الى كتاباته التي لم تقدر لها سعة الانتشار إلا بعد
وفاته عام ١٩٦١ . والواقع ان اقرب قرين لجيفارا في افريقيا
السوداء هو املكار غيرال المهندس الزراعي المولّد - احد
الابوين ابيض والاخر اسود- والثوري العقائدي الذي قاد حرب
العصابات الناجحة ضد حكومة الحكم البرتغالي في غينيا وجزر
الرأس الاخضر . ومن المؤكد ان قانون هو اشبه ما يكون
بسنغور وسيكوتوري ونكروما ولكن مسرح نشاط هؤلاء
الزعماء الثلاثة الذين جمعوا ما بين الطاقات السياسية للعملية
والحماس العقائدي كان في ساحات المدن العامرة لا في الغابات
والجبال النائية . واذا كان ذلك لا ينتقص من قيمة الدور الذي
ادوه في الحركات الاستقلالية الوطنية فانه لا ينفي ان مرور
الزمن وممارسة السلطة قد نالا إلى حد ما من مثالياتهم العقائدية
الاصيلة وهو أمر يصدق على سيزير أيضاً . ومن الثابت بالطبع
ان جيفارا لم يكن ممن تستهويهم المناصب فهل كان قانون في ذلك
قريناً له ؟ ليس في وسعنا ان نعرف ذلك . كل ما نعرفه انه
أصبح في اواخر حياته القصيرة ثورياً مثالياً متصلباً . فامثاله من

الرجال لا يعرفون الراحة .

ولقد كانت تتملك قانون طيلة حياته مرارة التمييز العنصري .
وكان في مطلع شبابه قد توهم ان في وسعه ان يتغلب على حاجز
اللون مستنداً في الى ثقافته وطاقاته الشخصية . وهكذا تطوع
في اثناء الحرب بالخدمة في الجيش الفرنسي واصبح يعيش في
اوروبا منذ عام ١٩٤٤ . ودرس بعد ذلك الطب وعلم النفس في
جامعة ليون حيث بدأ يدرك ويحس ان الزنجي بصرف النظر
عن مستواه العلمي والثقافي هو في نظر الفرنسي زنجي قبل أي
شيء اخر ومن ثم فهو ذو مرتبة متدنية « عندما اتحدث إلى من
يحبونني يقولون انهم يحبونني على الرغم من لوني وحينما اتحدث الى من
يكرهوني يعتذرون بأنهم لا يكرهوني بسبب لوني . وفي كلتا
الحالتين اجدني حبيس الحلقة اللعينة اياها »^(١) . وفي الجامعة قال
له الاستاذ المتحن بلهجة مشبعة بالاستهانة : ومن أين أنت ؟ آه
من المارتنيك .. (وفي الوقت نفسه تقريباً - يا للمصادفة - وعلى
بعد آلاف الاميال منه حدث ان كان باتريس لومومبا الذي ولد
معه في نفس العام - ١٩٢٥ - وتوفي في نفس العام أيضاً - ١٩٦١ -
قد اصطدم سهواً بامرأة بيضاء في احدى شوارع ليوبولد فيل
فالتفتت تنتهره حانقة « الا تستطيع ان تلتبه اياها القذر ») .
ويروى قانون ان نظام الامتحان في جامعة ليون يقضي بان

يدفع الطالب يده داخل سلة ليسحب منها احدى اوراق الاسئلة معتمداً في ذلك على حظه ولكن الاستاذ ترفق بفانون قائلاً « ما هو الموضوع الذي تريدني ان اسألك فيه؟ » إلا ان فانون سارع الى دفع يده بأنفة في السلة حسب العادة المتبعة .

وعلى الرغم من الاذلال الذي تعرض له فانون فقد ظفر بأعلى المستويات العلمية واقترب بفتاة فرنسية وعين رئيساً لدائرة علم النفس في مستشفى بليدا - جوينفيل بالجزائر . وكان ذلك عام ١٩٥٣ . ولكن بشرته ظلت مع ذلك سوداء . وفي السنوات القليلة التالية عندما كان في ايطاليا كانت زوجته هي التي تحجز لها الغرف اللازمة في الفنادق . ولقد كان من المحتمل ان تكون مشاعره اقل مرارة لو اقتصر هذا التمييز على اوروبا البيضاء وحدها ولكنه واجهه حتى في « العالم الثالث » الذي يفترض ان الكفاح ضد الاستعمار قد وحد بين شعوبه . فقد كتبت سيمون دي بوفوار تقول « وفي تونس لم تدعه العيون التي كانت تتلفت لمشاهدته ينسى لون بشرته » . ومن الواضح انه متى طرح موضوع العنصرية ومكافحتها للنقاش يصبح من المتعذر سحبه . ففي غينيا لم يكن اصدقاء فانون الافريقيون يقبلون التحدث معه في أمور هامة بحضور زوجته البيضاء .

ومن الواضح كذلك ان وجود الرجل الابيض في مستعمرة يحكمها البيض سواء كانت فرنسية أو هولندية أو برتغالية يقترن على الدوام بالسلطة والمكانة والثروة والتفوق. وليس هذا الاقتران رمزياً بل هو يضرب بجذور عميقة داخل البنية الاجتماعية . تلك كانت الحالة في جزر المارتنيك مسقط رأس قانون . وهكذا اصبحت ذروة طموح المواطن الاصلي هنا هي ان يكتسب اكبر قدر من الفرنسية سواء كان ذلك من حيث اللغة او التعليم او الثقافة أو حتى الدين . ومعروف ان مواطني هذه الجزر يتحدرون من صلب العبيد السود الذين نقلوا من افريقيا للعمل في مزارع السكر والقهوة وهو ما كان هؤلاء المواطنون يتمنون ان يذسوه وان يعتقدوا ان سياسة فرنسا الرسمية مبنية على امتصاصهم دون الالتفات إلى لون بشرتهم .

ويصف قانون ببراءة كيف يتعمد الفرنسيون تشريب المواطنين السود مفاهيم تجعل منهم رعايا سوداً باقنعة بيض سواء فعلوا ذلك بوعي او بغير وعي لما يفعلون . فالفرنسيون يوحون للسود بان يرضوا بالمهانة التي يفرضها عليهم لونهم الأسود . ففي جزر الانتيل مثلاً يطالع الطلاب السود منذ نعومة اظفارهم قصصاً تجعل من الرجل الاسود رمزاً للقوى الشريرة .

ولا بأس بأن يذهب الطلاب السود الى صالات السينما ليسخروا من رجال قبائل الزولو هاتفين لطرزان تأييداً له ضد الاشرار السود . ولكن الأمر يصبح شديد الوطأة حين يجد الزنجي نفسه وسط جمع من البيض في احدى صالات السينما بفرنسا ليشاهد منظراً كهذا . ذلك انه سيحس عندئذ ، سواء احب ذلك او لم يحبه ، انه مماثل لرجال قبائل الزولو وان اللعنة التي يصبها المشاهدون على اولئك الرجال تنصب في الواقع عليه بالذات .

من هنا كان جل ما يطمح اليه مواطنو جزر الانتيل هو ان يصبحوا بيضاً وفرنسيين . ومن ثم كان افراد الطبقة الوسطى منهم لا يتحدثون بلغة الكريول إلا الى خدمهم . أما فيما عدا ذلك فهم يتحدثون بالفرنسية بل ان الطبقة البرجوازية في جزر الهند الغربية تعامل الزوج القادمين من داهومي او السنغال مثلاً بالازدراء والامتهان بدلاً من التفاخر بان اجدادها انما قدموا من تلك الاصقاع الافريقية . وكان مما يعتز به سكان جزر الهند الغربية انه في الوقت الذي تشكل من الافريقيين فرق عسكرية منفصلة تابعة للجيش الفرنسي فانهم هم انفسهم يلتحقون بفرق الجيش الاوروبية مباشرة . وكان الهندي الغربي المنتسب الى الطبقة الوسطى يفعل كل ما في وسعه حين يصل الى فرنسا

لكي ينفي هويته الزنجية فتراه يقول متباهياً ان الزوج افريقيون اما هو فهو انسان مهذب تشرب الحضارة الاوروبية وان كان ملوناً. وكان يوهن نفسه بأن لون البشرة لا اهمية له واضعاً على وجهه قناعاً ابيض ! أما العناصر البيضاء فقد كانت من جهتها تتمسك بعناد بالصورة التي تحملها للزنجي البدائي الذي يبدو لها اشبه ما يكون بالدمية المضحكة وهو يرطن بالفرنسية حتى حين تجتمع بانسان مثل قانون يجيد الفرنسية اجادة تامة . فهي لا تستطيع إلا أن تستشف العنصر الزنجي من خلال لونه الأسود .

تلك هي الخلفية النفسانية الاجتماعية التي تنعكس ، كما يوضح قانون ، على صورة عصاب جنسي الم . فالرجل الهندي الغربي الابيض يسارع ، لدى وصوله إلى مرفأ الهافر ، إلى أول بيت للدعارة يلقاه في طريقه ليتذوق لأول مرة في حياته طعم جسم المرأة البيضاء « عندما تداعب يداي تلك النهود البيضاء احس بانها تمسكان بالمدنية والكرامة البيضاء وتجعلانها ملك يدي » (٢) . ومع ان مالكولم أكس يقول في مذكراته وسيرة حياته ان الاعتقاد السائد بان الرغبة الأولى لدى الزنجي هي ان يمتلك امرأة بيضاء انما هو اسطورة خلقها الرجل الأبيض إلا أن حواريته

الدريديج كليفر يعترف بتلفه السابق على المرأة البيضاء وانصراف
الأكثريّة الساحقة من زملائه السجناء السود عن النساء السوداوات .
لقد كانت الأيدي المتلفّة التي أشار إليها قانون تستقبل بترحيب
مقابل أجر ولكن الشعور بالخجل والاثم اللذين كان يحس بهما
كليفر قاده في النهاية إلى عملية اغتصاب متعمد مقصود . وكان
كليفر ، شأنه شأن قانون من قبله ، قد قرأ رواية رتشارد رايت
« الابن الوطني المحلي » . ثم أقدم على القيام بدور الحيوان البدائي
الأسود حين اغتصب امرأة سوداء .

وهنا يكن تطور بارز هام فالمواطن الفرنسي الأسود المثقف
نسبياً والذي كانت الحكومة الفرنسية تمنحه بعض الحقوق وكان
بدوره تواقاً إلى الكرامة والاحترام والمساواة ، كان يعتبر عملاً
كهذا شيئاً لا يتصوره العقل . ولكن بعد مرور ما يقرب من
عشرة أعوام على ذلك بدأ الشاب الأسود المثقف في الولايات
المتحدة يحس بياس تام من تحقيق تلك التطلعات والمثل ويعتصم
من ثم بموقف مشبع بالتحدي يقوم على نفس المرتكزات التي
طالما فرضها عليه الرجل الأبيض فرضاً . ففانون يستذكر أنه في
غضون ثلاثة أو أربعة أعوام من الزمن استفتى بحكم مهنته ،
كطبيب واختصاصي نفسي ، ما يقرب من ٥٠٠ رجل أبيض يلتمون

الى مختلف الجنسيات الاروربية فكان رد فعل أكثر من ٦٠ ٪ من هؤلاء بالنسبة « للزنجي » ان هذه الكلمة تقترن لديهم بصورة الملاكمة والتركيب البيولوجي الخاص والفحولة الجنسية والتفوق الرياضي والوحشية والخطيئة . ولا ينسى قانون ان يلاحظ انه لو لم يكن هو شخصياً اسود لكانت هذه النسبة أعلى من ذلك بكثير . فكما ان المال والخداع قد اصبحا رمزاً لليهود كذلك اصبحت الفحولة الجنسية للزئوج . ولكن قانون يصر ، بوصفه عالماً فرنسياً ، على ان الفحولة الجنسية الفائقة لدى الزئوج هي اسطورة لا اساس لها سواء قيست بمقياس التشريح او بمقياس الانجاز العملي . وكل ما في الأمر ان الزنجي الأمريكي الذي يجد نفسه على الدوام عاجزاً عن تحقيق ذكوره من الزاويتين الاقتصادية والاجتماعية يضطر في النهاية الى تبني ما يعتبره تعويضاً عن هذا العجز فيرتدي رداء الانسان المتفوق على الانسان الابيض رياضياً وجنسياً^(٣) . وفي غضون ذلك يواصل الزنجي الفرنسي أو البريطاني السعي لاكتساب صفة الاحترام والامتقاة لنفسه أو يكتسب تعويضاً عن ذلك سلطة سياسية واحتراماً ذاتياً يؤمنه له زوال الاستعمار عن افريقيا .

على ان التوتر الجنسي لا يقتصر على الزنجي الذكر بل يمتد

ايضاً الى الانثى الزنجية التي تقضي مطلع شبابها وهي تحلم
بالوصول الى ما يسميه كليفر « العريس النفساني الوسيط » .
ويكرس فانون صفحات طويلة من كتبه لبحث نفسية الفتاة
الهندية الغربية التي تبحث عن زوج ابيض أو بالاحرى عن زوج
يتسم بنعمة التمتع ببشرة يكون لونها اقرب الى البياض .
فالهاجس الاول وربما الوحيد للفتاة الزنجية في جزر المارتنيك
هو ان تتحول الى فتاة بيضاء . والفتاة المولدة ينبغي ان تعض
بالنواجذ على ما بلغته من تقدم وتتجنب بأي ثمن ان تنزلق من
جديد الى فئة ذوي السواد الكامل . وفي امريكا ايضاً تشربت
الفتيات السودوات اجيالاً طويلة روح الشعور بالدمامة والنقص
وكن بالتالي يمضين الساعات الطويلة في استخدام الزيوت
والدهونات المبيضة والأمشاط الحارة لتمليس شعورهن . ولكن
كاتلين كليفر تظهر في فلم اغنيس فاردا القصير المسمى « بلاك
بانتر » - الفهد الاسود - وهي تتوج رأسها بشعر كث ثقیل
وتقول « انه جميل ! »

فهل يعني ذلك ان مواطن المارتنيك قد أخذ في مرحلة ما
يتسامى بجهوده المذلة الموجهة نحو ما اسماه فانون « بالتبييض » ؟
ان توجيه ضربة قوية الى التطلعات غير الواقعية لجماعة أو لفرد

ما يمكن ان تسفر عن تفكيك سريع للقناع الابيض . ولقد قام باتريس لومومبا رئيس وزراء الكونغو المتطرف قبل بضعة اعوام فقط من تسلمه زمام الحكم باخضاع نفسه لعملية امتحان مذلة يتعرض خلالها الزنجي المثقف لدراسة كل وجه من وجوه حياته للتأكد مما اذا كان قد بلغ بالفعل المستويات الاوروبية للحضارة . وتعرض لومومبا بعد ذلك للسجن . وعندما استعاد حريته كان قلبه قد اصبح مشبعاً بسواد الغضب ولكنه كان كذلك قلباً اسود بالفعل . اما فيما يتعلق بالانتيل فقد كانت شهادة فانون غامضة مبهمه ان لم تكن مناقضة لما تقدمها . ذلك ان موقف « الاقنعة البيضاء » الذي يصفه في كتابه الاول الصادر عام ١٩٥٢ والذي يقوم على اساس السعي للانصهار المذل انما قصد به اعطاء صورة صادقة عن الوضع كما كان في ذلك الحين . ولكنه يعود في مقال نشره عام ١٩٥٥^(٤) الى النظر بمنظار تاريخي فيقول ان الحرب العالمية الثانية كانت بمثابة نقطة تحول في النفسية الجماعية لمواطن جزر الهند الغربية الفرنسية .

ويقول فانون ان عدد الاوروبيين المقيمين بصورة دائمة في المارتنيك لم يتجاوز قبل عام ١٩٣٩ ٢٠٠٠ نسمة كانوا يشغلون مراكز محددة ويتمتعون بمرکز محدد في المجتمع ولكن بنشوب

الحرب وسقوط فرنسا وصل الى البلاد نحو ١٠٠٠٠ لاجيء
اوروبي معظمهم من البحارة . وعاش هؤلاء اللاجئين اربعة
اعوام في المنفى لا يفعلون شيئاً يذكر منطوين على انفسهم بيأس
مطبق مما جعلهم بطبيعة ظروفهم عنصري النزعة . وما كان
للمواطنين المحليين الاصليين إلا أن يدافعوا عن انفسهم . فعندما
قال ايميه سيزير من قبل « ما اجل ان يكون الانسان اسود »
اعتبر كلامه ذاك فضيحة شائنة وحدث هزة في الضمير الجماعي
لكلتا الفئتين من المواطنين المحليين والبيض الذين رأوا فيه رجلاً
فقد عقله . ولكن تعاليمه بدأت الان تؤتى اكليها فقد انبثقت في
صفوف السود ظاهرة جديدة ملؤها احترام السواد والبشرة
السوداء والفن الأسود والبدائية السوداء واقترن ذلك كله بتطرف
سياسي جديد . وهكذا كان من بين نواب المارتنيك الثلاثة
الذين تم انتخابهم للبرلمان الفرنسي بعد التحرير نائبان شيوعيان
احدهما سيزير نفسه . ويصف قانون هذا التحول فيقول ان سكان
جزر الهند الغربية أصبحوا يتوقعون الى السفر الى السنغال
يحدوهم على ذلك امل مفعم بالرغبة في لمس الصدور السوداء
لافريقيا الأم . بيد انهم حين وصلوا الى دكار أصيبوا بخيبة أمل
شديدة إذ وجدوا ان الادوار قد انعكست وان الناس هناك لا

يعتبرونهم زنوجاً اقحاحاً. ولم يكن الرفض الاسود لهم شأنه
شأن سابقه الرفض الابيض الا ليزيدهم الحاحاً. أما في هذه
المرّة فقد كانوا يرتدون « اقنعة سوداء ».

على اننا اذا نظرنا الى الأمر من زاوية تاريخية واقعية الفينا
ان الدقة تعوزه في الحالتين . ففي رأيي ان تناقض الحالتين يمكن
فهمه من خلال صفتين يتصف بهما قانون، الاولى منهجيته العقلانية
التجريدية والثانية منظاره المعياري المبرمج برمجة دقيقة .

فلقد كان فرنسيا يكتب في ضوء تقليد فلسفي فرنسي معين
في حين ان الكتاب الهنود الغربيين البريطانيين الذين كتبوا في
اعقاب الحرب اتجهوا بطبيعتهم نحو كتابة الرواية كوسيلة للتعبير
عن خصائص المجابهة العنصرية بمرونة وغموض . بيد ان ثقافة
فانون كانت تجريدية تلقينية مشبعة احياناً بالمبالغات البيانية .
وهناك اليوم عبارة عامية يتداولها الناس فحواها « صفها كما
هي » ولكن الأمر بالنسبة لفانون مختلف فقد نشأ في ظل وجودية
سارتر وميرلو بونتي وكامو ومن ثم فهو ينفذ على الدوام الى قلب
الأمر ولها متجاوزاً التفاصيل الطاغية على السطح ليقول ،
باصرار ، هذه هي الحقيقة . اما كتاب الرواية من الهنود
الغربيين الذين يكتبون باللغة الانكليزية فشأنهم مختلف فنحن

نواجه في احدى روايات في . اس . تايبول بطل الرواية المسمى
مستر بسواس فلا نعرف إلا بصورة تدريجية لونه ومهنته
ومركزه الاجتماعي ومواقفه . اما قانون فانه يعالج من خلال
انقسامات قنوية جوهرية شؤون « الرجل الاسود » و « الرجل
الابيض » و « المستعمر » و « المستعمَر » و « المواطن المحلي الاصلي »
و « العنصري » و « الفلاح » و « البرجوازي » . وتتحرك
افكار قانون بسرعة المستعمر ونقاد صبر منطلقاً من الانسان
الفرد متغلغلاً في فئات هيكلية « الفاعل والمفعول » ، « النفس
والغير » وغير ذلك من التقسيمات التي كثيراً ما تخلق ضوءاً جديلاً
مجيداً ولكنها كثيراً ما تضيء ايضاً ببرق شديد ذي وضوح
مزيف .

واذن ، فان قانون ينزلق احياناً نحو المبالغة فكما بالغ في
« البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » في صفوف الهنود الغربيين فقد
بالغ كذلك في عام ١٩٥٥ في وصف سيكولوجيا الاقنعة السوداء
العكسية . ومرد ذلك الى ان قانون يعتبر نفسه كاتباً ارشادياً
وهو كذلك بالفعل ومن ثم نجده منصرفاً الى بث فكرة خاصة
معينة . ولقد وصف سارتر الأدب الملتزم بأنه شكل من اشكال
العمل ، العمل من خلال كشف الحقائق . ومن الواضح ان قانون

يتخذ دائماً من الكلمة المكتوبة اداة للتعبير . ففي كتابه الاول كان يحاول ان يحطم كلا من الحاجز المبني حول بياض الرجل الابيض والحاجز المبني حول سواد الرجل الاسود غير انه في عام ١٩٥٥ وقد شهد اندلاع نيران الثورة الجزائرية وأخذ يرى بشكل تام متزايد الحركات الاستقلالية في المستعمرات السوداء أصبح همه الدعوة الى النضال السياسي . ومن ثم فقد انصرف الى التنقيب عن الجذور التاريخية لحركة سياسية سوداء آخذة في التكون والظهور . ويقوم اسلوب فانون على صهر الاسلوبين الوصفي والعباري معاً ووضع « كما هي » في خدمة « كما ينبغي ان تكون » .

وفي عام ١٩٥٢ كان لا يزال يكرس نشاطه لمبدأ الاتحاد والمساواة بين الرجل الأبيض والرجل الاسود . ولكن الرجل الملون يتخلى عن احلامه في الاتحاد عندما يتعلم أمرين الاول ان الرجل الابيض يعني بالاتحاد « ان تصبح مثلي » والثاني ان الرجل الابيض مقتنع بان الرجل الاسود يستحيل ان يصبح مثله كما يستحيل ان يصبح على قدر مماثل له من المستوى . وعندما يستوعب الرجل الملون في النهاية النقطة الثانية يبدأ في التشكيك بالنقطة الاولى ثم يقرر جيمس بلدوين « انه ليس ثمة سبب

يدعوك الى ان تحاول ان تصبح كالرجل الابيض كما انه ليس ثمة أساس لافتراضهم الوقح بأن عليهم أولاً ان يقبلوك»^(٥). ولكن قانون لم يكن قد وصل بعد في كتابه الاول الى هذا المدى الذي هو في الوقت نفسه نقطة تحول . لقد اعتبر قانون ميل الزنجي المستعمّر نحو العزلة والانطواء على النفس - طبقاً لصيغة فرويد - امراً غير عملي . فالزنجي يريد الظفر بقبول الانسان الابيض له . وقال قانون معلقاً على ذلك « مهما بلغ تقبل هذه النتيجة من الايلام لي فأنني مضطر الى ذلك . فبالنسبة للرجل الاسود هنالك مصير واحد فقط . وهو مصير ابيض » . و اضاف قانون يقول « ليس العالم الاسود هو الذي وضع طريق مسلكي . فبشرتي السوداء ليست غلافاً لقيم محددة »^(٦) .

ان العنصر الذي وضع طريق مسلكه هو ظاهرة الاستعمار . فقد كانت جزر المارتنيك منذ عام ١٦٢٥ ممتلكات فرنسية . والواقع ان نظرة قانون للاستعمار كانت حتى في كتابه الاول مشبعة بأشد العدا . إذ اعتبره عملية نهب اقتصادي ووحشية وظلم سياسي بل عملية خصي نفسي . ووصف سيزير الاستعمار بأنه عملية تحول الانسان إلى جماد . ووافق قانون على ذلك مضيفاً انه لكي يمكن استعباد الناس من الضروري صرفهم عن

انسانيتهم من خلال اشاعة الحيرة والارتباك بينهم بصورة منظمة . ومن الطبيعي ان لا تكون جميع اشكال العنصرية عملاً استعماريًا بالمعنى الدقيق للكلمة . ولكن اللاسامية مثال صادق على ذلك . والنتيجة في الحالتين ، كما يقول قانون ، متماثلة . الم يفعل هتلر والنازيون باوروبا نفس ما فعله الاخضاع الامبريالي والهوس العنصري فشربت الشعوب الاوروبية الديمقراطية الطيبة من نفس الكأس التي طالما شربتها لشعوب مستعمراتها؟ من الواضح ان هذه الحجة القوية قد استمدتها قانون مما سبق لسيزير ان قاله من ان جريمة هتلر هي انه اذل الرجل الابيض بنفس الطريقة التي سبق للرجل الابيض ان اذل بها الرجل الاسود . ويقتبس سيزير عن رينان قوله « ان قيام الاجناس المتفوقة باعادة خلق اجناس متدنية أو منحطة هو النظام الالهي للبشرية » . واذا كان هنالك من فرق بين اعادة الخلق والاخضاع فان الرجل المحلي الوطني سيكون اخر من يلاحظ ذلك . وكان قانون صلباً عنيداً في هذه النقطة فاما ان يكون المجتمع عنصرياً أو غير عنصري « فالاستعمار العنصري لا يختلف عن أي نوع آخر من العنصرية » ، فليس من فرق يذكر لدى اليهودي مثلاً بين لا سامية شارل موراس ولا سامية غوبلز.

ولكن هذه النظرة تثير الدهشة دون شك . فالفرق بين الحالتين قد يعني عملياً الفرق بين الحياة والموت . بيد ان قانون كان متأثراً أشد التأثير بالحجج التي أوردها سارتر في كتابه « اللاسامية واليهودي » . فقد قال سارتر ان اليهودي سمح لنفسه بان يسميه القالب العدائي الذي صنعه الآخرون له . فقد جرد نفسه من طابعه الصادق الخاص في محاولة منه لتجنب التصرف وفقاً للقالب المذكور . وهكذا كان سلوكه بدافع محتوم منبثق من داخل نفسه . ولاحظ قانون ان اليهودي يستطيع أحياناً أن ينخرط في صفوف العنصر الأبيض الممتاز دون أن يميزه احد ولكن الأسود لا يستطيع التخلص من لعنة لون بشرته . فاضطهاد العالم الخارجي له مسبق ومحتوم وبالغ المدى . يضاف إلى ذلك انه في حين ان اليهودي هو « عنصر خارجي » بالنسبة للنخبة البيضاء فان الأسود ليس « عنصراً خارجياً » بالنسبة لهذه النخبة وحسب بل هو عبد للسيد ايضاً . غير اننا إذا اخذنا بهذا المنطق نجد ان اصرار قانون على ان العنصرية الاستعمارية لا تختلف عن أي لون اخر من ألوان العنصرية ، يتصف بالتناقض .

ان قانون نفسه يقول ان الشكل السائد للعنصرية انما يقرره

النظام الثقافي العام الذي يكرس ذلك الشكل جزءاً منه كما
تقرره الظروف التاريخية التي تولد ذلك النظام الثقافي بالذات .
ولقد لاحظ في خطاب القاء في المؤتمر الأول للكتاب والفنانين
السود وهو المؤتمر الذي عقد في باريس عام ١٩٥٦ ان بعض
الاشكال البدائية من العنصرية هي الان في طريقها الى الزوال
ولاسيما تلك العنصرية المبنية على المقاييس البدنية كشكل الجمجمة
وابعاد السلسلة الفقرية وتركيب الخلايا وما شابه ذلك . وقدم
مثالاً على ذلك ما ذكره العالم الفرنسي بورو عام ١٩٣٥ من ان
المواطن الافريقي الشمالي يمتلك قشرة دماغية رقيقة يمين عليها
الجزء الخلفي من مقدم الدماغ (يقابل ذلك قشرة دماغية سمكية
لدى الانسان المتقدم) . وربط فانون هذه العنصرية البيولوجية
بفترة محددة من الاستقلال الاستعماري كان المواطن المحلي خلالها
يستخدم كحيوان للاستفادة من طاقته البدنية وحسب . ولكنه
عاد فلاحظ ان احد المسؤولين في منظمة الصحة العالمية قد توصل
في عام ١٩٥٤ الى ان « الافريقي لا يستخدم ما لديه من نتوء
دماغي امامي إلا في حالات قليلة جداً وان الافريقي العادي
هو اوروبي ذو نتوء دماغي أمامي » . ولقد كان هذا النوع
من العنصرية سائداً في المانيا خلال القرن التاسع عشر كوسياً

للتمييز بين الآريين واليهود . ومع ذلك فمن الصعب الادعاء بأن الدور العادي لليهود في المجتمع الألماني كان يقوم على اداء الخدمات البدنية .

ويقول قانون ان ظهور اساليب اقتصادية أرقى وما نشأ من ذلك من تطور فنيين ماهرين وشبه ماهرين في صفوف المواطنين المحليين الأصليين الخاضعين للاستعمار ، قد ولد شكلاً جديداً من العنصرية أشد دهاء مما تقدم . فقد أخذ علماء الاجناس والسلالات البشرية البيض يثنون على ثقافة السكان المحليين الأصليين ويصورونها بأشكال دخيلة مصطنعة مقترنة بعطفهم عليها بوصفها شكلاً من اشكال التعبير الصادق عن حالة شعب يتصف بالسذاجة والبساطة الموروثة المحببة . وبذلك يكون اولئك العلماء البيض قد شجعوا بصورة غير مباشرة على استغراق المواطنين الأصليين في حالة الركون التي يعمرون بها وثبطوا عزائمهم عن السعي لاحداث تغيير اجتماعي ديناميكي .

واختار قانون هنا مؤلفاً لعالم فرنسي في علم الاجناس البشرية هو او . مانوني (٧) . فقد قام مانوني بدراسة مطولة لمجتمع السكان الأصليين في مدغشقر استخلص منها سيكولوجيا التاريخ الطبيعي

للشعب الملاغاشي وقال إن هذا التاريخ يقوم على أساس «التبعية» .
ولقد كانت الاساطير المحلية للسكان تتكهن بقدوم المستعمر
الابيض، ومن ثم فإن العلاقة الاستعمارية التي اعقبت قدومه بالفعل
يمكن ان تعزى الى الموازنة التي تمت بين شخصيتين عنصريتين
متمايزتين. فالبيض يسعون بالغريزة الى السيادة والقوة بأعتبارهما
سبيل النجاة من مركب «النقص» و «عدم الرضا» (شكل من
اشكل التعويض الزائد وفق الصيغة التي وضعها ادلر) في حين
ان مجتمع الشعب الملاغاشي نقل ما يحسه من مركب التبعية عن
مصادر السلطة الجديدة. وتكهن مانوني بان « مركب التبعية »
قد يكون المفتاح السيكولوجي لجميع الشعوب المتخلفة التي
كفت حضاراتها عن التقدم . « ليس من شك ، في رأيي ، بأن
الاستعمار يتطلب على الدوام وجود الحاجة الى التبعية. فالشعوب
ليست كلها قابلة للاستعمار » ^(٨) . اما ثورة شعب الملاغاشي
عام ١٩٤٧ والتي قمعها الفرنسيون بالقوة وسفك الدماء فيفسرها
مانوني على انها نتيجة لنقد تمتازات جعلت السكان الاصليين
نصف احرار ونصف محكومين الأمر الذي خلق في نفوسهم
شعوراً بعدم الطمأنينة. وتبع ذلك الشعور بالاثم وانتهى الأمر
باللجوء الى العنف . وينتج من ذلك ، حسب مفهوم مانوني ،

ان مصلحة شعب الملاغاشي تقضي بعدم منحه الاستقلال السياسي
الفوري .

على ان منطق مانوني هذا يناقض بشكل مذهل المنطق
الذي تبناه عالما الاجناس البشرية البريطانيان م. فورتس وئي. ئي
ايفانز - بريتشارد في كتابها « الانظمة الافريقية السياسية »
الصادر عام ١٩٤٠ فقد قال فيه : « ان معظم هذه المجتمعات قد
فتحت او خضعت للحكم الاوروبي خوفاً من الغزو . وما كانت
لتدعن للفاتحين لو لم تواجه التهديد باستخدام القوة .. » (٩) .
وكان سيزير قد حمل على كل من مانوني والعالم البلجيكي آر. بي
تمبلز الذي ادعى ان شعب البانتو قد اعتبر البلجيكيين جزءاً أمن
من الطبقة العليا التي يؤمن بقديستها . اما فانون فقد أصر على
انه بصرف النظر عن السيكولوجيا الجماعية التي كان يتصف بها
شعب الملاغاشي داخل مجتمعه المغلق قبل وصول الاستعمار اليه فلا
علاقة لهذه السيكولوجيا بالمواقف الجديدة التي تبناها الشعب
بعد الاستعمار . فمند ان دخل الفاتحون « كف شعب الملاغاشي
عن الوجود » . واذن فان القوالب التي يتخذها سلوك شعب ما
يجابه قوة استعمارية مسلحة متفوقة ، ليست مبنية على مجموعة
مسبقة من قواعد السلوك . على ان الواقع ان مانوني لم يقل

« مبنية على » بل قال « متداخلة في » ومن ثم فإن قول قانون بوجود فجوة سيكولوجية هو قول غير واقعي . ولكنه من الناحية الأخرى محق في التأكيد على أن الاستعمار هو أبعد ما يكون عن العمل الخيري بل هو في الواقع استغلال منظم يخلق شعوراً قوياً دائماً من النقص في نفوس الشعوب المستعمرة . وما دام قائماً فإن الجنس الأبيض سيظل يعتبر المواطنين الأصليين « أشياء » و « احصاءات » أو في أحسن الاحتمالات أطفالاً قائمين لا ينتسبون لأحد وتوعاً من الكسل الجماعي التافه . وكان قانون يؤمن على الدوام بأن مركب النقص هذا المفروض على الشعوب المستعمرة بالقوة لا يمكن إزالته إلا بمكافحته ومحاربته ورد الصاع صاعين لأولئك الذين فرضوه . ولقد ربط قانون ذلك بتعليق أهمية متزايدة على الآفاق العنيفة من إزالة الاستعمار .

ولست أريد أن أحسن الظن إلى مدى الاعتقاد بإمكان تغيير الواقع من خلال توجيه النداءات إلى العقل أو إلى الكرامة الإنسانية^(١٠) . ولكن قانون نفسه يشير إلى ذلك في نهاية كتابه الأول . ففي كتاب البشرية السوداء والاقنعة البيضاء كان الشاب قانون لا يزال يحلو الجواهر البراقة للعقل العام فهو وحده الذي يستطيع تحرير الظالمين والمظلومين على السواء من الحيرة التي

يتخبطون فيها . وكان اهتمامه في غضون ذلك كله ، منصباً على المواطن المارتينيكي المثقف ، على نفسه : اذ لم يكن قد تطور بعد الى بطل « المعذبون في الارض » . « ليس وحش الغابة هو الذي اقصده لان بعض العناصر والعوامل لم تكتسب بعد اهمية لديه » (١١) .

٢ - الزنجية أو السراب الأسود

« حينما تستعبد الناس تحرمهم من نصف محاسنهم ، وتنشئهم وفقاً لقلبك الخاص الذي يصورهم مثلاً للغش واللصوصية والشر ... ومع ذلك فانك تشكو من انهم يفتقرون الى الشرف والاستقامة ! »*

ذلك ما ورد عن لسان غوستافاس فاسا الذي قضى شطراً من حياته عبداً خلال القرن الثامن عشر. والواقع ان ادب كفاح السود متنوع وقديم قدم تاريخ العبودية في العصر الحديث ، وكان هذا الادب مشبعاً بروح من التآرجح بين صوت الاحتجاج

* صور الشاعر العربي هذه الحالة ابداع تصوير فقال :

القاء في الميم مكتوفاً وقال له اياك اياك ان تبطل بالماء

(المترجم)

والاقتناع اللين وبين صرخات الغضب والتحدي ، بين الثورة
وبين التوفيق والمصالحة .

ويعتبر قانون مديناً في الدرجة الأولى لاييمه سيزير . وفي
رأي قانون ان سيزير تبني منفرداً روح الكبرياء السوداء لدى
شعب الانتيل « انني اتمنى أن أرى الكثيرين من النخبة المثقفة من
السود يلجأون للاستيحاء من افكاره » والواقع ان كتاب سيزير
Cahier d'un Retour au Pays Natal هو قصيدة
منثورة طويلة تسلق ما يسمى الاستعمار الخير بالسنة حداد نيرانية .
وفيه يحرك سيزير نبض الحياة في « الحيوانات » المسكينة التي لا
تصلح لشيء عدا تسميد « نبات قصب السكر والقطن » ، في
الرجال السود الذين كان اجدادهم يباعون كالأبقار في الاسواق
العامة ، اولئك الكادحين الذين بدأوا اخيراً فقط برفع رؤوسهم
والسعي لتوحيد صفوفهم مع سائر الفئات المعذبة في الارض
اولئك الذين يمكن ان يتعرضوا للضرب وحتى للقتل دون ان
يخشى المعتمدون عليهم مغبة ذلك . « ان الجنس الذي انتمى
اليه هو الكرامة اليانعة التي تدوسها اقدام السكرارى » إن روح
الغضب والثورة هي التي كان قانون يبحث عنها لدى الشعراء
السود تلك الروح التي عبر عنها بصوت صارخ الشاعر السنغالي

الشاب دافيد ديوب فقال « الرجل الابيض قتل أبي ، وكان ابي رجلاً أبيضاً ، الرجل الابيض اغتصب امي ، وكانت امي امرأة جميلة .. (١) » .

بيد ان سيزير كان يمثل ما هو اشد من الغضب الاسود . لقد كان كتابه يمثل اللب والجوهر من مجموعة القيم والعواطف والمفاهيم التاريخية فيما يعرف «بالروح الزنجية» . هذه المجموعة ذات العقدة المتشابكة من المبادئ والمفاهيم التي تمثل بمجملها الشعوب السوداء ، قد شكلت في الواقع تحدياً ضخماً لكاء فانون المعترف بالتمييز .

ان مفهوم الروح الزنجية مستمد ، تاريخياً ، من عدد من موضوعات تراث الكاريبي في القرنين التاسع عشر والعشرين . ولكنها انبثقت ، بصورة اشد تحديداً ، من الحركة الوطنية المحلية في المستعمرة الفرنسية السابقة هايتي . ففي هذه الجزيرة بالذات ولد لأول مرة ضمير الزنجي الذي يعيش في عالم ابيض . ومن بين الموضوعات التي ظهرت في هذه الفترة ذلك الموضوع الذي طالما اسدل عليه ستار النسيان الا وهو ما ينطوي عليه التاريخ الزنجي الافريقي من غنى . وكان الاحتلال الامريكي

لهائتي الذي بدأ عام ١٩١٥ ولم ينته حتى عام ١٩٣٤ ، قد ولدت في الجزيرة ارتجاجاً عاماً أفضى إلى بعث الحياة في الاساطير والامثال والموسيقى الافريقية ، ورافق ذلك رفض النخبة السوداء للثقافة الاوروبية التي تشربوها ونشأوا عليها . وكان الكتّاب الذين احيوا ذلك التراث الافريقي قد أشاعوا بين افراد الشعب تعلقاً بالحياة الريفية والفلاحين واحتراماً لأشد ألوان الثقافة المحلية بدائية بما في ذلك الرقص الشعبي الزنجي .

على ان الحركة الادبية المقترنة بمفهوم الروح الزنجية لم يكتمل اطارها قبل الثلاثينات من هذا القرن . ولم يتم في جزر الكاريبي بل في باريس بالذات ، في قلب امبراطورية الاستعمار الفرنسي . وكان ملهموها الثلاثة الرئيسيون هم سيزير وليوبولد سيدار سنغور من السنغال وليون داماس من غينيا الفرنسية ، وكلهم شعراء أصبحوا فيما بعد سياسيين . وكان أثرهم قوياً في قانون . وكانت قصائد سيزير^(٢) تمتاز بالفصاحة والبلاغة في حين ان قصائد سنغور غلبت عليها الايقاعات الموسيقية الافريقية . وهكذا ولدت الروح الزنجية على شكل أسلوب أدبي ومواقف عنصرية معقدة وتأكيد على جوهر الثقافة الزنجية وأداة محتملة للتحرير .

على انه ظهرت عند هذه المرحلة مفارقة واضحة . فعلى الرغم من الطابع المميز للشعراء السود فقد تأثر هؤلاء ، دون شك ، تأثراً قوياً بالتيارات التي ظهرت في الشعر الفرنسي المعاصر . فسيذير وليرو ، على الخصوص ، مدينان بقدر كبير من أفكارهما الى اللسرياليين اليساريين مثل اندريه بريتون وغيره . ولكن السريالية لم تكن ، خلافاً لما يعتقد به بريتون ، أداة فعالة للقيام بثورة اجتماعية وعنصرية . وكان تأكيدها على العفوية والاشعور وتفاعلها بالغيبية واللاعقلانية قد طبعها بما هو أقرب إلى الثورة البوهيمية منه الى الثورة التاريخية المأموسة القائمة على التغيير الاجتماعي . وهلل سارتر للشعر الزنجي باللغة الفرنسية واعتبره الشعر الثوري الوحيد المعاصر ولكنه أدرك قصوره كما أدرك قصور سريالية بريتون . ولقد وصف شعر سيذير بأنه مزيج من المشاعر المدمرة والحرة والغيبية وبأنه صرخة نسيجها الأنين والحزن والبغض والحب في آن معا ، ولكنه كان في الوقت نفسه شعراً لا يستطيع فهمه وتذوقه الا قطاع صغير من النخبة الناطقة باللغة الفرنسية .

وفي عام ١٩٤٨ ظهرت في باريس روائع من الشعر الزنجي

الحديث اختارها سنغور وقدم لها سارتر . وفي هذه المجموعة الشعرية نجد الروح الزنجية تسود الكتاب كله . ولكن أبرز ما فيه بنوع خاص هو ان ثلاثة فقط من الشعراء الذين تضمن الكتاب شعرهم افريقيون . أما الآخرون فهم من غيانا والمارتنيك وغواد لوب وهايقي . وهكذا نستطيع ان نرى في لحظة ان نداء الروح الزنجية والهامها يكاد يكون مقتصراً على أشد زنج الامبراطورية الفرنسية « رقياً » وعلى المناطق التي خلق فيها الشعور بالغربة مزيجاً فذاً فريداً من التوق والحنين للروح الافريقية البدائية ومن التطرف السياسي والتفوق الفكري . وحتى الشعراء الافريقيون الثلاثة الذين ضم الكتاب مختارات من شعرهم وهم بيراغو ديوب ودافيد ديوب وسنغور نفسه (جامع المقتطفات) ينتمون جميعهم الى أشد المناطق رقياً في افريقيا الغربية الفرنسية والسنغال . وكان هؤلاء الشعراء قد نفوا أنفسهم نقياً اختيارياً ولد فيهم مشاعر سيكولوجية - ثقافية - عنصرية كتلك المشاعر التي يكنها الهنود الغربيون . وهكذا يتضح ان الروح الزنجية الجديدة تكاد تكون منعزلة بكاملها عن القارة الافريقية الكبيرة . ولعل هذا السبب وحده ، من دون الاسباب الاخرى ، كاف لتكون ادعاءاتها بأنها جاءت لتقود جماهير

« الحيوانات المتوحشة » السوداء إلى عالم الحرية ، قد ولدت
ميتة .

وأدهى من ذلك ان الروح الزنجية ، بكل ما تتصف به
من شراسة ظاهرية ، تقدم تنازلاً صغيراً ولكنه جوهري
للثقافة البيضاء السائدة . فالرجل الأبيض ، سيد العالم ، لم
يحاول قط ان يحشم نفسه عناء خلق مذهب أدبي يدور حول
جنسه الأبيض . فكما قال الشاعر النيجيري وول سوينكا ،
ما الذي يحوج النمر الى ان يعلن « تنمره » ؟ ومع ذلك فان بعض الزوج
مثل سنغور وسيزير جعلوا جانباً من عواطفهم وعقولهم مرتيناً
لدى الثقافة البيضاء . فهناك خط من الاستمرارية بين قصيدة
سنغور « لو كسمبرغ » التي نظمها عام ١٩٣٩ ووصف فيها نفسه
بأنه مولد ثقافياً وبين سياسته الموالية لفرنسا عندما أصبح بعد
ذلك بعشرين عاماً رئيس جمهورية السنغال . أما بالنسبة لسيزير
فسنرى كيف استقبل أندريه مالرو عندما وصل الناطق بلسان
ديغول الى جزر المارتنيك عام ١٩٥٨ .

لقد أخذ قانون شيئاً فشيئاً يعي ذلك كله من خلال
عملية متواصلة من التصفية والتمحيص . ففي بادىء الأمر كانت

عواطفه تتأرجح اقتراباً وابتعاداً من اشادة سيزير ببداية الزوج
« فليست الافواه هي وحدها التي تغني بل الايدي والاقدام
والبطون والجنس والمخلوق بكامله فهو ينصهر كله في الصوت
والايقاع » ويتساءل سيزير في قصيدته هذه « ما نحن ومن نكون؟ »
ويمضي فيقول « سؤال مثير للدهشة ! فبفضل مراقبة الاشجار
غدوت شجرة .. وبفضل التفكير بالكونغو غدوت بنفسي كونغو
تضج بالغابات والانهار » والقي قانون نفسه وهو يقرأ هذه القصيدة
وما مائلها ، وقد اجتاحت هذه الكونغو المثيرة وهزه رفض
سيزير المتحدي لقوة الرجل الابيض التكتيكية والعسكرية .

هنيئاً لأولئك الذين لم يخترعوا قط شيئاً .

لأولئك الذين لم يرقادوا شيئاً .

لأولئك الذين لم يخضعوا شيئاً (٣) .

اولئك هم السود الذين « بدونهم لا تكون الدنيا دنيا » ،
اولئك هم الكادحون الذين تنطلق زنجيتهم الى عتات السماء .
ويصف قانون الصورة التي يرسمها سنغور للزنجي بأنها من حيث
الجوهر صورة رجل عاطفي تضرب جذوره عميقاً داخل الارض ،

رجل يذيب ذاته في العالم كله دون تمييز في حين ان الاوروبي يقصي نفسه عن الطبيعة حتى يتمكن من اخضاعها والسيطرة عليها . وفجأة تؤكد عقلانية قانون نفسها فيقول ان الحلم قد انتهى « وعلى الانسان ان لا يستسلم للايقاع الموسيقي ولحب الارض الأم هذا اللغز والزواج الدنيوي الذي يربط الجماعة بنظام الكون » (٤) .

وهكذا يمكن القول ، مجازاً ، ان قانون قد وقف امام المرأة يحاول تجربة ارتداء عباءات مختلفة القياس زاهية الألوان نسيجها البدائية السوداء ومقاسها تاريخ السود . ثم اخذ يلبس عباءة وينزع أخرى وهو يجربها كلها واحدة اثر الاخرى . ثم استعرض نفسه امام الرجل الابيض وهو يرقص أمامه عارياً من الثياب وفي يده حربة ولكن ذلك لم يترك في نفس الرجل الابيض انطباعاً طيباً . « فدفعته وقلت له بصراحة : تعود عاداتي فلست متعوداً عادات احد » وهنا قال الرجل الابيض ان المهمة الجدية في العالم هي مهمة السيطرة على هذا العالم . واصبحت عقيدة قانون النهائية تتلخص بحل في : « لا ينبغي لي ، بأي شكل من الاشكال ، ان استمد هدي في الأسامي من ماضي

الشعوب الملونة . ولا ينبغي لي ان اكرس نفسي ، بأي شكل من الاشكال ، لبعث حضارة زنجية غير معترف بها ، ^(٥) . ولقد اصر ماركس ، على كل حال ، انه « ليس في وسع الثورة الاجتماعية ان تستمد أشعارها من الماضي بل من المستقبل وحده . وليس في وسعها ان تبدأ بنفسها قبل ان تجرد نفسها من جميع الاساطير المتصلة بالماضي » و اضاف فانون من عنده : « ان اولئك الرجال وحدهم من الزوج والبيض الذين يرفضون ان يسمحوا لانفسهم بالتفوق داخل برج الماضي المتجسد ، هم الذين لا يستبعدون » .

وهكذا اصبح من الواضح ان الشاب الصغير فانون مصمم على ان يأخذ طريقه من خلال ما عاناه شخصياً من حالات الاذلال ، نحو اختراق جدران التحيز واللاعقلانية والوصول الى عقلانية عامة شاملة . هنا ايضاً كان نفوذ سارتر واضحاً فقد قال في مقاله المعنون « اورفي نوار » « Orphée Noire » والمنشور عام ١٩٤٨ ان الفكرة الذاتية الوجودية العرقية للروح الزنجية تتحول ، وفقاً للمنطق الهينغلي ، الى فكرة موضوعية ايجابية لطبقة البروليتاريا . فتأكيد التفوق الابيض يقدم الطريقة كما ان

الروح الزنجية ، بوصفها قيمة أصيلة ، هي السلبية . أما
الحصيلة فهي خلق مجتمع لا تطقي . وبذلك تكون الروح الزنجية
هي التعبير الأصغر عن تقدم دياكتيكي .

وعلق قانون على ذلك فقال « عندما قرأت تلك الصفحة
أحسست بأنني جردت من آخر فرصة لي .. » وحاول قانون ان يثار
لنفسه ، فكتب يقول « لقد نسي (سارتر) ان على الوعي ان يفقد
نفسه في غياب المطلق ... فالوعي الملتزم بالممارسة يجهل ، ولا بد
ان يجهل ، جوهر وحتمية وجوده » ^(٦) . ولكن ذلك لا يجدي
لأن قانون هو بالضبط واحد من أولئك المفكرين الذين ينفجر
« التزامهم بالممارسة والخبرة » داخليا من خلال نظرتهم الخارجية
الى انفسهم . وكان منطق سارتر قد نفذ الى داخل المارتنيك بالذات
كما يستدل على ذلك من مقال نشره قانون بعد ذلك (عام ١٩٥٥)
وقال فيه ان ولادة السياسات البروليتارية في المارتنيك قد جاء
قي نفس الوقت الذي ولد فيه الوعي الزنجي . والواقع ان سيزير
نفسه قد نسق جهوده مع جهود الشيوعيين الفرنسيين واخذ يدعو
(وان كانت دعوة نسيجها البلاغة والفصاحة قبل أي شيء آخر)
إلى اشغال نيران ثورة بروليتارية في اوروبا .

على اننا عندما نتأمل في الموقف غير الودي الذي وقفه فانون فيما بعد من كلتا طبقتي البروليتاريا البيضاء والطبقة العاملة الناشئة في المستعمرات - وهو موقف قائم على نظرة متطورة شاركة فيها سارتر الى حد كبير - نجد ان هذه التكهّنات الديالكتيكية قد تشبه بالونات ملونة تنتقل ذهاباً واياباً بين اوروبا والبحر الكاريبي . ولعل من سخریات القدر في تاريخ الفكر ان كلا من سارتر وفانون قد تخليا عن طبقة البروليتاريا خلال عملية مخاض انتقالهما من شكل الانسانية الاشتراكية إلى شكل اقوى من الماركسية الجديدة المبنية على الثورة العنيفة .

ان سارتر رجل ممتاز ولكن ذلك لا ينفي ان فانون سيبقى في كل الحالات رجلاً اسود . وعندما يغلق فانون صفحات كتب سارتر وهو مصمم على ان يقتفي أثر المعلم ويتعالى فوق فكرته المرحلية عن الروح الزنجية ، يظل من المحتوم عليه ان يواجه عالماً أبيض لا يقيم لشهادته العلمية الطبية من الوزن ما يقيمه للون بشرته الاسود . ويبقى كذلك ان فانون لا سارتر هو الذي سيواجه سخرية الناس . هنا نجد ان المأزق الذي يجد المفكر الاسود نفسه فيه مماثل لورطة بيغر توماس بطل رواية رتشارد رايت « الابن الاسود » وهي الرواية التي أثارت اعجاب فانون . ففي

هذه الرواية جاء التهديد الاعظم الذي تعرضت له حياة بيغر ،
عندما حاول التودد اليه ومعاملته على قدم المساواة ، من اثنين :
فتاة غنية وصديقها الشيوعي . فقد كان كرم اخلاقها يهدد الهوية
التي رسم المجتمع الابيض مواصفاتها له ، وبالتالي كان ذلك يعرض
للخطر ردود فعله الدفاعية دون ان يضمن له بأية حال من
الاحوال ما يقيه خطر انتقام ذلك المجتمع منه . وهكذا يقتل
بيغر الفتاة وهو نصف واع ، ويحرق جثتها ثم يشرع في رحلة
طويلة قائمة على البحث الوجودي واكتشاف الذات يتجول خلالها
بين المباني المهجورة من الجانب الجنوبي من شيكاغو . « فالثقة
لا يمكن الآن ان تعود من جديد الا من خلال عمل يبلغ من شدة
العنف حداً يمكنه من النسيان ^(٧) » . ويبدو ان الشاب الصغير
فانون يواجه نفس الاختيار مع فارق واحد هو النكوص عما فعله
بيغر كما يحذر بطبيب مثله ان يفعل .

في عام ١٩٥٦ حضر كلا فانون ورتشارد رايت خالق
شخصية بيغر المؤتمر الأول للكتاب والفنانين السود في باريس .
والقى رايت كلمة قصيرة أعرب فيها عن رأيه بأن الحصيلة النهائية
للتدخل الاوروبي في افريقيا كانت تحرير الافريقيين من ماض
لا عقلائي وتهيئتهم للدخول في عصر النهضة المبارك . ومع ان

هذه الخطبة لم تظهر باعجاب فانون الا انها لفتت الأنظار إلى مأزق الاختيار الصعب فيما يتعلق بتكوين وعي زنجي موحد الاطار يمتد الى ما وراء مشكلة الروح الزنجية المحددة . وفي عام ١٩٤٧ أسست في باريس مجلة « بريزنس افريكان » وأشرف على تحريرها اليون ديوب وتولاهما بالرعاية عدد من الفرنسيين الاحرار اليساريين بينهم اندريه جيد وكامو وريفيت ومونيير وسارتر ونافيل وليريس . ولقد كان لهذه المجلة أثر عميق في فانون فقد اقتبس منها الشيء الكثير في كتابه البشرية السوداء والأقنعة البيضاء . واليهما كان يعزو قدرته على تنسيق البواعث السيكولوجية التي تهيم على تصرفات الملونين . على ان ما حاولت صحيفة بريزنس افريكان اخفائه وأماط اللثام عنه مؤتمر باريس هو تلك الثغرة الواسعة التي تفصل بين موقف الزوج الفرنسيين وموقف الزوج البريطانيين وبين موقف كلتا هاتين الفئتين من جهة وموقف الزوج الأمريكيين من جهة أخرى . فقد كتب فانون يقول : « انني أشعر باهتمام بالثقافة الفرنسية والحضارة الفرنسية ، الشعب الفرنسي . فنحن (السود) نرفض ان نعتبر «خوارج» ، نحن نسهم اسهاماً كاملاً بالدراما الفرنسية^(٨) . ولا يعني لك رفض الروح الزنجية وحسب بل يعني الانصهار في أوسع

الثقافات العالمية . وهكذا وجد قانون نفسه في عام ١٩٥٦ وجهاً لوجه مع واقع انقسام الزوج وفق خصائصهم الاوروبية المختلفة وهو انقسام جعله فيما بعد يعتبر ثقافة الزنجي مثل ثقافة الرجل الابيض ثقافة ذات مميزات قومية في الدرجة الأولى . ولقد تحدث سنغور في المؤتمر مؤيداً هذه النظرة فقال ان الزوج البريطاني والامريكيين يتبنون النظرية التجريبية (البرغماتية) في حين ان الزوج الفرنسيين منطقيون ديكارتيون « وهذا هو السبب في انكم أحياناً لا تفهموننا كما اننا بدورنا لا نفهمكم » . كذلك فان تقرير جيمس بلدوين عن المؤتمر ^(٩) مستنداً الى انطباعاته الخاصة عن أسلوبي سنغور وسيزير الخطابين يدل على اشارة سنغور الى صعوبة التفاهم بين الفرنسيين والافغولوساكسونيين من الزوج ليست بعيدة عن الواقع . ولقد يسوغ لنا ان نطلب بالتالي من النائب الاشتراكي الفرنسي ان يحاول ان يفهم الاسباب التي تدعو النائب العمالي البريطاني لقضاء فترات الصباح من أيام الأحد في الكنائس . فقد كان يعتنق الدين المسيحي معظم الزعماء الافريقيين البارزين من ذوي الثقافة البريطانية وفي طليعتهم كنياتا ونيريري وكاوندا ونكروما . وعندما وصل قانون عام ١٩٦٠ إلى اكرا عاصمة غانا ليكون سفيراً لحكومة الجزائر

الموقفة فيها، وجد نفسه إلى حد ما لا يتعاطف مع ثقافة تختلف كل الاختلاف عن ثقافته . على أنه من الواضح من الناحية الأخرى أن المسيحية في الولايات المتحدة تقترب اليوم على نحو مطرد الزيادة في نظر النخبة من الزوج المثقفين بالضعف والاندماج ومن ثم ظهر اتجاه جديد نحو ديانة إسلامية سوداء أو نحو الحاد الماركسية الجديدة .

بيد أنه إذا كان الزوج الذين حضروا مؤتمر باريس وجدوا أنفسهم متقسمين فإن قانون لم يسمح لنفسه بأن يعتبر اللجوء إلى الروح الزنجية كحل لذلك الانقسام . فلم يقرّ سنغور على أن الثقافة والتاريخ الأفريقيين يؤمنان أطرا ومبادئ قابلة للحياة . فقد كتب في عام ١٩٦١ يقول : « أن الاعتقاد بأنه من الممكن خلق ثقافة سوداء يعني نسيان أن الزوج أنفسهم ، بطابعهم ونفسياتهم القديمة ، قد بدأوا يختلفون كما بدأت نفس تلك الشعوب التي خلقت الزنجية بطابعها القديم المعروف تشهد انهيار تفوقها الاقتصادي والثقافي » (١٠) . واعتبر قانون اقدام سنغور على ادخال « الروح الزنجية » كموضوع للدراسة في مدارس السنغال خطوة انتكاسية رجعية .

ويجمل قانون في كتابه « المذبذبون في الأرض » تطور

الكتابة المحلية في المستعمرات من خلال تقسيم ذلك التطور إلى ثلاث مراحل . ففي المرحلة الاولى كانت هنالك محاولة لاستيعاب وتمثل ثقافة المستعمرين والمحتلين ، فقد بلغ انصهار الكتاب المحليين حداً جعلهم يقلدون ويتبنون مثلاً الشعراء الفرنسيين الرمزيين والسرياليين . وفي المرحلة الثانية بدأ التراجع بحثاً عن هوية محلية صادقة أصيلة ولكن المشكلة هنا ، كما يقول فانون ، ان الكاتب المحلي الوطني يجد نفسه ، بسبب ثقافته الأوروبية ، مقطوع الجذور التي تربطه بشعبه . ومن ثم يضطر الى الاعتماد على الاساطير ويبالغ في الاهتمام بالجوانب الداخلية الغريبة من الادب والفن الشعبي . اما المرحلة الثالثة فقد بدأت مع ظهور الادب الثوري المكافح . وفيها بدأ الكاتب المحلي الوطني يلجأ الى الشعب ليتعلم منه ويوحى اليه وينصهر في النهاية كلياً في خضم نضاله . (وكان ماو قد دعا بالطبع الى مثل هذا الادب في مسرح ينان) . واعتبر فانون قصيدة كيتا فوديبا « فجر الافريقي » مثلاً رائعاً على الروح الثورية المناهضة للغيبية .

ولقد كان هذا التقسيم مماثلاً جداً لذلك التقسيم الذي وضعه سارتر والذي تمثل فيه الروح الزنجية المرحلة الثانية المتوسطة . ويمكن وراء سارتر الفكر الديالكتيكي لكل من ماركس وهيجل .

ومن الواضح ان هذه التفسيرات الثلاثية المراحل تلقى تجاوباً دائماً لدى العقل البشري . ولكن مما يلفت النظر بنوع خاص في حالة قانون ، كيف أمكن ان تتولد من خلفيته الهندية الغربية وتراثه الفلسفي العقلاني فكرة تجريدية تتجاهل العوامل المتغيرة للتطور الافريقي . فالانسان المارتنيكي فيه يتجاهل اثر اللغات الافريقية المحلية المعقد سواء منها ما كان شفويّاً او كتابياً . وكما أشار جاهن فان الادب المبتدىء لا يعني بالضرورة استيعاب وتمثل ثقافة ولغة المحتلين . فأدب البانتو المبتدىء كان يعبر عنه بصورة عامة باللغات المحلية ، وكان مبنياً على تقليد تناقل القصص والروايات شفويّاً . وبخلاف ذلك كان قد در كبير من أدب الاحتجاج والكفاح المبكر باللغات الاوروبية . ثم ان كاتباً افريقياً مثل افرام آمو من ساحل الذهب استطاع ان يؤلب مواطنيه على الغزاة الفاتحين وهو يخاطبهم بلغته المحلية الاصلية « توري » وهو ما لم يكن في وسع كتاب منطقة البحر الكاريبي ان يفعلوه في وقت كانوا فيه عاكفين على إجادة لغتهم الفرنسية ووضعها في خدمة « روح زنجية » غريبة ومصطنعة الى حد ما . والواقع ان قانون ظل من بعض الوجوه غريباً عن واقع القارة الافريقية التي حمل لواء تحريرها بحماس منقطع النظير .

٣- فلسفة في مرحلة انتقالية

ان الشكل الذي يتخذه كتاب ما يتم إلى حد ما عن محتوياته . وانطلاقاً من ذلك نلاحظ ان صفحات كتاب « البشرية السوداء والاقنعة البيضاء » مثقلة بالمراجع والهوامش العلمية بخلاف ما نلاحظه في كتاب «المعذبون في الارض» . فمع ان الكتاب الاول تنبض فيه الحياة من خلال التجارب الكثيفة الخاصة للمؤلف نفسه إلا ان هذه التجارب قد فسرت بعناية بالغة في ضوء تعاليم العديد من الفلاسفة وعلماء النفس واللغة والسلالات العرقية البشرية . أما الكتاب الثاني فان الحياة تتدفق فيه من خلال المداد الذي كتب به . ومع انه من المؤكد ان الشاب فانسون كان كاتباً ملتزماً ومنهجياً إلا انه كان كذلك مفكراً ناشئاً . ولقد

وصف كتابه « البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » بأنه « دراسة تحليلية هادئة » .

ومع انه لا داعي لإعداد قائمة كاملة بالمصادر التي استشهد بها قانون او انتقدها في كتابه الاول إلا إنه لا بد من الإشارة الى انه تعرض لأفكار هيغل وماركس ونيتشة وفاليري وجاسيزر ومارسل ولا كان وبياغيث وموليير وليريس وجيد ودوهاميل ناهيك بسارتر وميرلو - بونتي اللذين استمع قانون الى محاضراتهما في ليون . أما فيما يتعلق بالمحللين النفسانيين فان قانون يؤثر الكبار المعروفين منهم مثل فرويد ويونغ وادلر وليكونت إلى آخر هذه السلسلة . فقد ظفرت دراسات جميع هؤلاء باهتمامه البالغ . ولكنه في كتبه التالية خفف من الاعتماد على هذه الركائز إذ لم يعد مفسراً للفلسفة الاجتماعية بل غدا صانعاً لها .

ان تطور افكار قانون يوازي من بعض الوجوه تطور افكار ماركس ولكنه - خط تطور افكار قانون - أشد التصاقاً بنحط تطور افكار سارتر . فلقد كان ماركس في اوائل حياته (قبل نام ١٨٤٥) شبيهاً بقانون في مطلع شبابه من حيث الميل الى معالجة « الانسان » كما لو كان عنصراً مجرداً . ففي كتاب

« مخطوطات اقتصادية وفلسفية » تحدث ماركس عن « قوى الانسان الاساسية » وعن « جوهر الانسان » وعن « الطبيعة البشرية الصحيحة » . أما فانون فقد كتب يقول في مطلع شبابه « ان جميع أنماط الاستغلال متماثلة لأنها جميعاً تتناول (الموضوع) نفسه : الانسان » ويضيف قائلاً ان نسيان ذلك هو بمثابة « ان يدير الانسان ظهره ببساطة للمشكلة الاساسية الرئيسية ألا وهي إعادة الانسان الى مكانه الصحيح »^(١) . ومن الواضح ان فانون قصد بعبارة « المكان الصحيح » نفس المحتوى الانساني الذي قصده ماركس بعبارة « الطبيعة البشرية الصحيحة » . ومع ان ماركس كان منذ مطلع شبابه مادياً واقعياً بحيث حلل الحالة الانسانية باعتبارها حالة اجتماعية إلا انه كان ميالاً الى موازنة الخلافات البشرية بالخلافات النفسية . ولعل هذا هو ما قصده فانون عندما قال « انني آمل جدياً باقناع اخي ، اسود كان أو ابيض ، بأن يمزق بكل قوته الزي الخزي الذي نسجته مئات الاعوام من سوء الفهم »^(٢) . ومن الممكن اعتبار « سوء الفهم » هنا بمعنى « الغيبية » و « الوعي الباطل » عندما ركس.

على ان القول بأن جميع أنماط الاستغلال متماثلة هو قول لا يصمد أمام الاعتراضات المنطقية المعروفة . فهل صحيح مثلاً ان

جميع اشكال الالم الجسدي الذي ينزله عامداً انسان بإنسان متطابقة متماثلة لمجرد انها تنزل بالانسان ؟ ومع ذلك اليس بطرح أمثال هذه الأسئلة استطاع فانون ان يتسامى بالنزعة التي كانت تتملكه في مطلع حياته من حيث التجريد البشري العرقي ؟

الواقع ان كلا من ماركس وفانون يشكلان تقدماً من الصعيد الانساني نحو الصعيد الاجتماعي . ولكن الموضوعات الاولى عند الرجلين ليست محللة تحليلاً اذا نظرنا اليها في ضوء صعيد جديد اشد واقعية مما تقدم . فقد تبين الآن مولد منطق عام يتطلب احداث تغييرات تاريخية واجتماعية . ولقد كتب ايميه سيزير مثنياً على فانون يقول ان كتابه «البشرة السوداء والاقنعة البيضاء» هو الكتاب الحاسم بشأن العواقب الانسانية للاستعمار والعنصرية في حين ان كتابه «المعذبون في الارض» يعتبر مفتاح عملية إزالة الاستعمار . ولقد كانت فكرة «التحرير» لا فكرة «الثورة» هي المنطق المهيمن على كتابه الاول إذ لم يرد فيه أي ذكر للاشتراكية . ولعلنا نستطيع ، اذا شئنا استخدام عبارات اخرى لشرح ذلك ، ان نتحدث عن ثلاث شخصيات متعاقبة منبثقة من فانون : شخصية الرجل الرافض للتحول (بشرة

سوداء وأقنعة بيضاء) ، شخصية المواطن الجزائري الحر (دراسات حول استعمار في طريقه الى الموت) ثم شخصية الثوري الاشتراكي (المعضبون في الأرض) . ولقد كتب آر. دي لينغ يقول : « ان مهمة وصف الظواهر الاجتماعية وتطورها هي ربط تجربتي بتصرفات الآخرين بتجربة الآخرين بتصرفاتي » (٣) . وهذا بالضبط هو ما كان قانون يحاوله في كتابه الاول . أما فيما كتبه بعد ذلك فقد تراجع التركيز على الوصف أمام دراسة الديالكتيكية الثورية . واصبح قانون بذلك معنياً بكيفية استخدام العنف في قلب اوضاع الظلم السائد ، حتى تستطيع النفس المستعمرة تحقيق التقدم والروح الفردية الأصيلة . (ماركس : « ان الفلاسفة اقتصروا على تفسير العالم على نحو مختلف ولكن المطلوب هو تغيير هذا العالم ») وكانت أفكار ماركس قد بدأت تتبلور في العام ١٨٤٥-١٨٤٦ . أما بالنسبة لقانون فقد كانت الفترة الحاسمة التي أعاد فيها قولبة افكاره هي تلك الفترة الممتدة بين عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٦ . وكما امتدت جذور تحول ماركس الفكري فيما بعد الى قسمة العمل والى الصراع الطبقي فان جذور التحول الفكري لدى قانون امتدت الى قيام الاستعمار بقسمة العالم الى اقطار فقيرة واخرى غنية اقطار مستغلة واقطار مستغلة ،

حاكمة ومحكومة .

وتعتبر الطبقة الكادحة العاملة - البروليتاريا - في نظر
ماركس نموذجاً للاستغلال الاجتماعي في أشد حالاته تطرفاً .
أما عند قانون الشاب فإن هذه المرتبة يتشرف بشغلها المستعمرون
السود . ولقد فعل قانون في أواخر حياته ما فعله ماركس في
السنوات المتأخرة من حياته ايضاً اذ حول الطبقة المعرضة إلى
أقصى الاستغلال إلى طبقة عالمية رسالتها التاريخية هي قلب
الأوضاع الاجتماعية التي تولد الاستغلال . وعندما تصل هذه
الطبقة إلى مرحلة الوعي العقائدي الصحيح لحالتها الجماعية
الخاصة تصبح اطار الحقيقة التاريخية . « فالفلاح والعاطل عن
العمل والمواطن الاصلي الجائع لا يسعون إلى الحقيقة ولا يدعون
أنهم يمثلونها ، ذلك انهم هم الحقيقة نفسها » (٤) .

وكان قانون قد بدأ دراسته في فرنسا في السنوات التي أعقبت
الحرب العالمية عندما كان أثر تعاليم سارتر بوصفه فيلسوفاً وقصصياً
كاتباً مسرحياً ومفكراً اشتراكياً قد بلغ ذروته . وليس من
شك في ان قانون مدين لسارتر بالشيء الكثير ، ولقد كان فرانسيس
جنسون أحد مريدي سارتر المقربين هو الذي كتب مقدمة

النسخة الفرنسية الاصلية من كتاب قانون البشرية السوداء والاقنعة البيضاء . والحقيقة ان كتابات قانون هي إلى حد كبير صدى لمفاهيم سارتر . فقد قال سارتر في مؤلفه القيم عن جين جينه : ان المجتمع البورجوازي هو الذي جعل منه لصاً وذا ميول جنسية شاذة . « لقد أخذوا طفلاً وجعلوا منه وحشاً لأسباب تتصل بالمجتمع » ولم يكن الدرس بالنسبة للزنجي ضئيل الأثر . الا ينطبق المنطق نفسه على بيغر توماس في رواية رايت « ابن من السكان الاصليين » ؟

بيد ان قانون لم يكن فيلسوفاً بل كان فيلسوفاً اجتماعياً . فأمثال سارتر من الفلاسفة مثلاً يمحسون « المنهج » تحيصاً دقيقاً ولكن منهجية قانون هي بصورة عامة ، ضمنية (وقد أصبح ذلك صحيحاً بصورة متزايدة في مؤلفاته المتأخرة) في حين ان منهجية سارتر محددة بجلاء . وفي الوقت نفسه لا بد من القول بأن الزنجي « يقذف في العالم » بمفهوم لا يستطيع الرجل الابيض ان يستوعبه ومن ثم فان شهادة قانون توفر دليلاً لا غنى عنه مطلقاً لنظام سارتر الأوسع والاشد تعقيداً . والواقع اننا إذا قسنا الامور في ضوء الفلسفة الاجتماعية نجد ان قانون قد قطع خلال انتقاله من كتابه « البشرية السوداء والاقنعة البيضاء » إلى كتابه « المعذبون

في الارض « نفس الرحلة التي قطعها سارتر من كتابه « الوجود والعدم » إلى كتابه « نقد المنطق الديالكتيكي » . ولعل التمييز الرئيسي بين الرحلتين يكمن في ان كتابي سارتر يضمنان أبحاثاً جوهرية تتناول المنهج الفلسفي كما ان نشرهما سبق كتابي قانون السالفي الذكر وترك فيها أثراً قوياً . ولكننا نجد كلا الكاتبين يتراجع تراجعاً ملحوظاً عن التركيز الوجودي على حرية الاختيار الفردية مصحوباً باهتمام متزايد بالتحتمية الاجتماعية . وأخيراً يعلن سارتر نفسه ماركسياً منزلاً الوجودية إلى مرتبة ذات فلسفة جانبية هامشية تختفي حالما تنصهر أفكارها في السلوك الفردي انصهاراً تاماً في الماركسية التي غدت تتجه ، في أيدي ممارسيها المعاصرين ، نحو « انثربولوجيا غير انسانية » . وأكد قانون كذلك على اهتمامه بالوحدات الصغيرة من المجتمع . ولقد أخذ الشيوعي الفيتنامي بنغويين على قانون انه استبقى بعض الآثار الوجودية في مؤلفاته الاخيرة ولا سيما فيما يتعلق بنظريته عن العنف .

ولقد ازداد هذا التطور العام في أفكار قانون جلاء من خلال ما نشره من نظراته في التحليل النفسي والعلاج النفسيين . والعداء التقليدي بين طريقة فرويد في التحليل النفسي وبين

الماركسية أو بين وجودية سارتر ومدرسة فرويد الفكرية لهو أمر معروف كل المعرفة . وفي حين ان الاتجاه في « العلوم الطبيعية » يسير نحو تقسيمها وتعريفها من خلال اختلاف قطاعات المادة والحياة التي تدرسها فان « العلوم الاجتماعية » كثيرأما تشبه الجيوش التي تتنافس على احتكار تفسير نفس الاحتياطي . فنحن نجد ستوكلي كارمايكل يخطب في مؤتمر « دياكتيك التحرير » الذي عقد في لندن في تموز ١٩٦٧ فيقول : « لست عالماً نفسانياً أو طبيباً نفسانياً بل أنا مناضل سيامي ، ولا يعنيني أمر الفرد فأنا اعتقد ان تحدث الناس عن الفرد هو نوع من التهرب . واني أريد التحدث عن النظام ^(٥) » . ولكنه ، يا للمفارقة العجيبة ، يمضي إلى تأييد النظرة الفردية حينما يلجأ إلى الاستشهاد « بقديسه » فرانز فانون وان كان من الواضح انه أساء فهم ما استشهد به . ذلك ان قول فانون « ان استعباد الرجل الأسود ليس مشكلة فردية » لا يعني مطلقاً ان الحديث عن الفرد تهرب من المشكلة . والحقيقة ان الفلاسفة الاجتماعيين الذين يسلكون هذا الدرب الصعب ويقصرون دراساتهم على الفئات والوحدات الاجتماعية الصغيرة كثيراً ما يقعون في « الانثروبولوجيا غير الانسانية » التي شكها منها سارتر . ولعل من أعظم حسنات فانون انه على

الدوام يعزو الحالة النفسانية للفرد إلى مجتمعه دون ان يهمل النظر إلى الفرد نفسه .

يعتقد فانون ان مركب النقص الذي يعانيه الزنيجي يعود في الدرجة الاولى الى جذور اقتصادية ولكن الرجل الاسود حوله بمرور الزمن الى صفة ذاتية تتصل بلون البشرة . وانتقد فانون فرويد لمبالغته في التركيز على « التطور الفردي » للكائن البشري مصراً على ان فهم نفسية الجماعات لا يتأتى إلا من خلال التشخيص الاجتماعي لها ^(٦) . ولكنه كان يقدر كل التقدير ، على الرغم من موقفه الانتقادي من فرويد وأدلر ويونغ ، أهمية دراستهم للشعور المكبوت والتسامي والتعويض رابطاً ، بتحفظ شديد ، ما بين نظرية فرويد في الدور الذي يلعبه الجنس في عهد الطفولة من حياة الانسان ونظرية يونغ في اللاشعور الجماعي .

وقال فانون ان التفسير المبني على التحليل النفسي لمشكلة الزوج هو وحده الذي يستطيع ان يكشف النقاب عن ابعاد لشذوذ الذي أدى الى مركب النقص المذكور و اضاف ان لتركيب العصايبى لفرد ما هو ، ببساطة ، تطوير وانفجار داخل من لمجموعة الصراعات الناشئة جزئياً من المحيط والظروف

ومن ناحية اخرى من الطريقة الشخصية التي يتجاوب بها الفرد مع هذه التأثيرات . ولكن هذا كله مجرد وصف للحالة . أما المشكلة فهي مشكلة المسببات أي أصل العلة وكيف نشأت . والحقيقة ان قانون حاول ان يصطنع أو يوفق بين التقاليد العارضة والتي يعتبر احياناً بعضها غريباً عن بعض سواء تناول العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسية مع التركيز الوجودي على حق تقرير المصير . والواقع ان صعوبة التوفيق بين هذه التقاليد واضحة بنوع خاص في بحثه لحالات العصاب الجنسي في ضوء العنصرية والعرقية .

ولقد أقر قانون نظرية بيير نافيل بأن أحلام المرء وحالته من الوجهة الجنسية تستمدان شكلها من حالة الفرد الاجتماعية الاقتصادية ولكنه ربط هذه الفكرة بالتوجه الجنسي للزواج نحو البيض أكثر مما ربطها بالرهبة الجنسية التي يحسها البيض تجاه السود . وأوضح ذلك في ضوء الرغبة العارمة التي تتملك الانسان الزنجي وتدفعه لاكتساب الثقافة المسيطرة والانصهار فيها والظفر باعترافها به . ويضيف قانون بهذا الصدد ان النساء البيض اللواتي يشعرن بالخوف من الزواج يتصفن عادة بخلفية جنسية شاذة ويتوهمن ان لدى الزواج طاقة جنسية خارقة حرمن من مثلها وهن في الوقت نفسه يخشينها . أما

الرجال البيض الذين يشعرون بالخوف من الزنوج فهم ممن يعانون من مركب نقص جنسي . فالرجل الأبيض في مثل هذه الحالة يحول رغباته الجنسية المكبوتة ليلصقها بالزنجي . ولكن قانون هنا يتفادى الزام نفسه بتفسير عام . فهو يشير الى ان « المدينة » بالذات تخلق عصباً كهذا ويضيف « ان احراز أي قدر من التقدم الفكري يستتبع فقداناً في الطاقة الجنسية الكامنة » . فهو يرى بصورة عامة ان التوجه الزنجي الجنسي نحو البيض هو نتيجة لعدم التأثير باعباء ثقافة ما .

وبعد عام ١٩٥٤ اصبح لدى قانون ميل متزايد للتركيز على الأسباب الاجتماعية - الاقتصادية للانهاك العقلي . وكان يهاجم باستمرار سوء استخدام الأساليب النفسانية المتبعة لتكييف الشواذ وفقاً لمجتمع يدعو الى نبذ قطاع معين من الناس . وهو ينتقد بالتالي الأطباء النفسانيين الامريكيين الذين يتصدون لتكييف العمال بحيث تنسجم تصرفاتهم مع شروط العمل السيئة في المصانع وذلك من خلال إثارة محاكاة رمزية لأدوار غير واقعية . ففي مقال نشره في شباط ١٩٥٢^(٧) لفت الانظار الى الصعوبات التي ينطوي عليها تقديم العلاجات الطبية للافريقيين الشماليين المقيمين في فرنسا . فكثيراً ما كان تصرف المرضى

العرب يؤدي الى نفاذ الصبر لدى الاطباء الفرنسيين وفقدانهم الثقة بحقيقة الأمراض التي يشكون منها . فلقد كان اولئك المرضى يقدمون للاطباء أجوبة غامضة تربكهم في تعيين مصدر الألم . ولكن الأطباء الفرنسيين البيض لم يكونوا قادرين على إدراك العنصر النفساني المتولد من حياة العرب في اجواء لم يألفوها بعيدين عن اسرهم واصدقائهم معرضين على الدوام لعدم الاستقرار والطمأنينة وكأنما هم يحيون الموت نفسه . ذلك هو ما يدعو رجلاً عربياً تبدو عليه مظاهر القوة والعافية الى ان يقسم أمام الطبيب من اعماق قلبه على انه يكاد يموت . فالغربة نفسها هي الظاهرة المرضية التي يعانيتها هؤلاء الناس .

ويظهر اعتقاد قانون بأن توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية ، من خلال رسالة الاستقالة التي قدمها إلى لاكوست وزير الجزائر الفرنسي عام ١٩٥٦ . فقد كان قانون طبيباً مسؤولاً في مستشفى العلاج النفساني في بليدا - جوينفيل منذ شهر تشرين الاول ١٩٥٣ . وكان قد مضى على الثورة الجزائرية في عام ١٩٥٦ عامات وهي تتصاعد يوماً بعد يوم . وبحلول هذا العام كان قانون قد بلغ نقطة التحول الجذري في علاقته بفرنسا . وأشار في استقالته السابقة الذكر الى ان المعالجة النفسانية علم طبي مهمته الحيلولة دون ان يحس الانسان

انه غريب عن محيطه . ولكن السياسة الفرنسية الرسمية تعتمد ان يحس كل عربي جزائري بأنه غريب عن بلاده نفسها وانه فاقد كل مقومات الشخصية . إنه في الواقع ضحية لمحاولة فاشلة لشل تفكير شعب بكامله . ومضى قانون يقول انه ليس مما يجدي شيئاً ان ينوح الفرنسيون على فقدان الروح الاجتماعية لدى الانسان العربي وميله إلى استخدام خنجره والقتل لأوهى الأسباب مادام هذا العربي يعاني الجوع وسوء التغذية والبطالة ولا يحس بالامن والطمأنينة . واستعاد قانون الى ذاكرته ما شهدته في عام ١٩٤٤ وهو جندي شاب ينتظر دوره للصعود الى ظهر السفينة «اوران» ، ففي ذلك اليوم شاهد الجنود يرمون بكسرات من الخبز الى الاطفال العرب الذين كانوا يتشاجرون بعنف متسابقين للوصول الى تلك الكسرات وقد اكتست وجوههم بعلائم السخط والغضب والكراهية والعنف متلقنين بذلك قانون المزرعة ذلك القانون الذي لا يسمح لهم المجتمع بنسيانه مطلقاً .

لقد كان المجتمع الافريقي الزنجي مشبعاً بالعادات والطقوس الشاذة التي كان البيض يردونها باحتقار الى فقدان الاستقرار النفسي الداخلي . فالمواطنون الأصليون يؤمنون بوجود رجال على شكل النعرة وآخرين على صورة الافاعي فضلاً عن وجود

كلاب بسة أرجل وماشابه ذلك من السخافات . ويقول قانون ان هذه الأساطير والطقوس تؤدي مهام محددة في عملية الانفعالات النفسانية الجماعية . ففي ظل ظروف مجحفة معينة تنسحب النفس وتنطوي على نفسها ثم تجد لها منفذاً في الحركات العضلية . غير ان هذه العادات تخف بشكل ملحوظ في اثناء الصراع من اجل التحرر . على انه اذا كان قانون يعتبر الطقوس القبلية من نتائج الحكم الاستعماري وحده ، كما يبدو انه يعتقد بالفعل ، فانه يكون مخطئاً . صحيح ان هذه الطقوس تتغير وتتفاهم احياناً بفعل سيطرة الرجل الأبيض كما حدث في ثورة الماوماو ضد المستوطنين البريطانيين في كينيا والتي رافقها الكثير من الطقوس العنيفة إلا انه لا بد من التأكيد على ان اعمال القمع العسكرية البريطانية القاسية نجحت بشكل خاص في الحيلولة دون ظهور حركة تحرر وطني منسق ودفعت الفلاحين المسلحين الى اللجوء الى الأساليب والتشكيلات العقائدية الممهدة لثورة فلاحية اقترنت بافكار اسطورية خرافية .

ولقد ظل قانون منذ استقالته من مستشفى بليدا - جوينفيل عام ١٩٥٦ حتى وفاته بعد ذلك بخمسة أعوام ، يولي اهتماماً بالغاً لحالات الاضطراب النفسي الفردية . ولكن النقاط التي

يركز عليها تتغير تبعاً لما يحدث من تطور عام في افكاره . ففي كتابه « البشرة السوداء والاقنعة البيضاء » كانت نقطة الانطلاق هي تجربة الفرد ، أما العوامل الاستعمارية والعوامل الاجتماعية العامة فيأخذها بعين الاعتبار كخلفيات لتفسير الحالات ذات العلاقة . أما في كتبه التالية فقد اصبح تركيزه على الصراع السياسي والعنقي مع ذكر حالات محددة من الاضطراب النفسي على سبيل الايضاح . وهكذا كان قانون الشاب نفسانياً محترفاً ذا معتقدات سياسية وعرقية خاصة قوية أما قانون الرجل الناضج فقد اصبح ثورياً أغنى مفاهيمه في نتائج العنف الجماعي بمعلوماته في الطب النفساني .

٤- الجزائر

في غضون بضعة أعوام فقط اضطرت الجمهورية الفرنسية الرابعة إلى التخلي عن ممتلكاتها المستعمرة في الهند الصينية وتونس والمغرب . وتعرض الجيش الفرنسي لإذلال شديد بانهزامه في معركة ديان بيان فو وقرر بالتالي انه لا بد له بعد ذلك من الصمود والتوقف عن استمرار التراجع . وكان المكان الطبيعي للبدء بهذا المنعطف وتنفيذ ذلك القرار هو الجزائر التي كانت مستعمرة فرنسية منذ عام ١٨٣٠ وكانت جذور الاستعمار الفرنسي فيها عميقة جداً . فبالإضافة الى الاستثمارات الفرنسية الاقتصادية الضخمة فيها ، بما في ذلك نفط الجزائر ، كان يقطنها ويزرع جانباً كبيراً من تربتها أكثر من مليون نسمة من أصل اوروبي . لقد كانت الجزائر تعتبر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا .

وبدأت الثورة في عام ١٩٥٤ فأعلن منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا حينذاك أنها ستسحق . ومع ان انتصار اليسار في انتخابات عام ١٩٥٦ ، حمل في طياته أملاً بإمكان التوصل إلى تسوية بين الجانبين بحيث تقدم فرنسا بعض التنازلات إلا ان رئيس الوزراء الاشتراكي غي موليه خضع في أوائل عام ١٩٥٧ للجزائريين الفرنسيين المتطرفين وتحول مسرح القتال الى حرب شاملة ملؤها العنف والحقد والقتل والتعذيب الذي امتد من الجزائر إلى فرنسا وأدى الى سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة واستيلاء العسكريين الفاشيست على الحكم .

تلك كانت الخلفية التي خبر قانون في ضوءها اعمال العنف . ولقد ضمن تجاربه ومعلوماته تلك مجموعة من المقالات جمع قسماً منها في مجلد أسماء « دراسات في استعمار ميت » وجمع القسم الآخر في مجلد ثانٍ أسماء « في سبيل الثورة الافريقية » .

وبحلول كانون الثاني ١٩٥٧ كان لاكوست الوزير الفرنسي المقيم في الجزائر والذي قدم اليه قانون استقالته قد تخلى عن الاشراف على العمليات البوليسية وعمليات الأمن العام في الجزائر ليتولاها عنه الجنرال ماسو من فرقة المظلات العاشرة . واستخدم

رجال المظلات مخبرين ملتزمين ليرشدوهم الى المواطنين المتعاطفين مع جبهة التحرير الجزائرية في حي القصبة الشعبي . وبرهنت هذه الخطوة وما ماثلها من أساليب القمع على جدواها وفعاليتها الأمر الذي أوقف اعمال الارهاب داخل المدن . واضطرت جبهة التحرير الجزائرية الى الانسحاب نحو المناطق الريفية لتركيز جهودها على حرب العصابات . ومن هذه الخلفية تولدت لدى قانون فكرة كتابه « المعذبون في الارض » .

وهنا يشير قانون ساخرأ الى ان الفرنسيين سرعان ما اكتشفوا ان الثورة موحى بها وتُموّل من الخارج ولا سيما من مصر بقيادة عبد الناصر ومن موسكو أيضاً . فحتى البير كامو نفسه دعا في عام ١٩٥٨ الى عدم التخلي عن الجزائر لتلا محل محل الفرنسيين فيها الاستعمار الجديد . وأضاف كامو يقول : ان جبهة التحرير الجزائرية تعتزم اجلاء ١٢٠٠٠٠٠٠ اوروبي واذلال ملايين الفرنسيين . ومع ذلك فإن موقف كامو هذا يعتبر موقفاً معتدلاً اذا ما قيس بأراء الضباط العسكريين العاملين في الجزائر . فهؤلاء الضباط أو الكثيرون منهم كانوا يعتقدون أنهم يشنون حرباً مقدسة وانهم يصدون مؤامرة ضد الحضارة الغربية . وكانت أساليبهم في « تهدئة » الأمور مستمدة من أفكارهم تلك

ويقول فانون في ذلك انهم حاولوا أول الأمر أن يشطروا الشعب إلى من أسموهم « العقلاء » أو الموالين ومن أسموهم « الثوار » وهي سياسة لا تزال الولايات المتحدة تنتهجها حتى اليوم في فيتنام . ثم وعدوا باجراء اصلاحات اقتصادية واجتماعية واسعة . ولا شك ان بعض هؤلاء الضباط كانوا مخلصين فيما وعدوا به ولكن رجال الصناعة الفرنسيين الجزائريين لا الضباط هم الذين كانوا يهيمنون على السياسة الاقتصادية الجزائرية . وحاول الجيش كذلك وبشيء من النجاح استغلال المنافسة بين جبهة التحرير الجزائرية والحركة الوطنية الجزائرية التي كان يتزعمها مصالي الحاج . فقد قام الجيش بمذابح عديدة ألصقها بجبهة التحرير وكانت أسوأ تلك المذابح ما حدث في قريتي ملوزا وواغرام . ففي ملوزا التي كانت من معاقل مصالي الحاج قتل أكثر من ٣٠٠ رجل واهتمت جماعة مصالي الحاج والجيش الفرنسي على السواء جبهة التحرير بهذه العملية . ثم عمد الجيش إلى تدبير آخر اذ رحل قطاعات من الشعب بكاملها من مراكز اقامتها الاصلية حتى يقطع صلاتها بعصابات جبهة التحرير الجزائرية . وبحلول عام ١٩٥٩ كان قد أكره نحو مليوني عربي أي ما يقرب من نحو ربع مجموع السكان على هجر قراهم لكي يقطعوا صلاتهم بأفراد

العصابات الذين كانوا في الواقع أبناء وأشقاء أولئك المنقولين بالذات . وفي غضون ذلك حمل الخوف واليأس الفرنسيين على شن غارات قتل جماعي على القرى التي يشتبه بأنها تؤوي رجال العصابات . وهكذا بلغ العنف الفاشيستي الذي لجأ إليه البيض أسوأ درجاته وأخط دركاته .

وبدأت سلسلة جديدة من عمليات التعذيب في مراكز الشرطة والمعتقلات العسكرية وأطلقت من جحورها كما أطلقت الجرذان من مجاري المياه القذرة في رواية كامو « الطاعون » . ومن الطبيعي ان الكثرة الساحقة من الضحايا كانت من العرب ولكن الاوروبيين الذين كانوا يساعدون الجزائريين في حركتهم التحررية تعرضوا للاضطهاد أيضاً . ففي احدى حملات التعذيب عمد رجال المظلات إلى خنق موريس أودين استاذ الرياضيات الفرنسي بكلية العلوم في الجامعة الجزائرية والذي كان يبلغ من العمر ٢٥ عاماً فقط . وشرح هنري البغ وهو فرنسي جزائري شيوعي ما تعرض له من ألوان التعذيب في كتابه « المشكلة » الصادر عام ١٩٥٨ . وهكذا لم يكن هناك أحد لا تطاله أيدي رجال المظلات . وأحرق رجال الامن لسان محمد صفتا المسجل في المحكمة الشرعية الاسلامية بالجزائر .

وأُتِهمت الفتاة جميلة بوباشا بوضع قنبلة في أحد مطاعم جامعة الجزائر فملاً المظليون جوفها بماء الصابون وأولجوا فيها قنينة من الزجاج . اما والدها البالغ من العمر ٧١ عاماً فقد عرضه لتيار كهربائي قوي وهم يتشفون بعذابه ويقولون : « لا انسانية مع العرب » . أما الطلبة الجزائريون في باريس فقد كانوا يطوقون بين الحين والآخر وينقلون إلى مراكز الشرطة حيث يتعرضون لالوان العذاب الأليم . ولم يكن يجرؤ إلا القليلون من المحامين الشجعان على الدفاع عن المعتقلين الجزائريين . وكان المحامون الذين يقدمون على ذلك يتعرضون للارهاب بينما كانت قيادة الجيش العليا ووزير الحرب الفرنسي في باريس يحولان دون التحقيق في الشكاوى المتعلقة بهذا الموضوع . أما لجان التحقيق التي كانت تشكلها الحكومة الفرنسية بين وقت وآخر فلم يكن لها معنى على الاطلاق في نظر العرب . فبعد سبعة اعوام من الفظائع المتواصلة لم تجر ادانة فرنسي واحد بتهمة قتل أي جزائري أمام أية محكمة فرنسية .

وكان قانون يراقب ذلك كله . وفي هذه المراقبة يكمن سر تحوله من قانون الشاب الى قانون الناضج . لقد كانت المبادئ الخلقية للطب تلك المبادئ التي تشربها فانون في فرنسا متوهمًا

ان جميع الاطباء الفرنسيين يحترمونها هذه المبادئ، كان يداس عليها في الجزائر على نطاق جماعي جماهيري . فآين ، في خضم الحرب الاستعمارية ، تجعل « الحضارة » لقيمتها اثرأ ملموساً ؟ ان سيمون دي بوفوار والمحامي التونسي جيزيل حليمي يؤيدان البيانات التي قدمها قانون بأن الاطباء الفرنسيين اسهموا في عمليات التعذيب وأنكروا فيما بعد علمهم بذلك . وأيسد هنري اليغ الاتهامات التي أعلنها قانون بأن بعض الأطباء اشرفوا على عمليات حقن المعتقلين الجزائريين بما يسمى « مصل الحقيقة » المعروف بأن له اثرأ يشبه اثر التنويم المغناطيسي ولكنه يعرض من يخضع له لعامة دائمة في كيانه وشخصيته . وكان أطباء الجسد والاطباء النفسانيون يتعاونون معاً على السيطرة على الصدمة التي يتعرض لها المعتقل . « عندما أبحث عن الانسان الناشيء، عن المثالي الاوروبي ، لا أجد إلا سلسلة من اعمال انكار الانسان وفيضاً من عمليات القتل » (١) .

ويشير قانون الى عدد من الحالات ليشرح الآثار العصبية والعقلية التي تخلقها عمليات التعذيب في منفذي العملية وضحاياها، على السواء . ومن الأمثلة التي اوردها قانون على ذلك حالة مفقش بوليس اوروبي مارس عمليات التعذيب على نطاق واسع فاصبح

العنف والاستبداد صفتين ملازمتين له على نحو مطرد الزيادة وذلك في جميع علاقاته الشخصية حتى وصل به الأمر إلى الاعتداء بالضرب على زوجته وأولاده . وعند هذه النقطة هرع الرجل إلى المستشفى طلباً للمساعدة فوضع تحت إشراف قانون الذي يصف ذلك فيقول « طلب مني دون موارد أن أساعده على مواصلة أعمال التعذيب ضد الوطنيين الجزائريين دون أن يتعرض لوخز الضمير ودون أن تنشأ لديه أية مشكلات بشأن التصرف ، وإن يظل أثناء ذلك رابط الجأش »^(٢) . ويقول سارتر في مقدمته لكتاب الينغ « السؤال » : « إنه الجلال ، ذلك الذي يصبح مثل سيسيفس . فهو إذا وضع السؤال مرة كان لا بد له من الاستمرار إلى الأبد في إعادة السؤال » .

ويرى قانون أن الاختلاف في حالات المرض النفسي يكون طبقاً لاختلاف طرق التعذيب التي يتعرض لها المريض (وإن كان لا بد من الإشارة إلى أن قانون يؤكد ذلك دون أن يبرهن عليه) . فأولئك الذين كانوا ضحايا الأساليب المتبعة في المعاقبة بسبب « التمييز العنصري » مثل أسلوب ملء جوف الضحية لاء المشبع بالصابون يشكلون فئة معينة في حين أن الضحايا ينخضعون للتعذيب الكهربائي يشكلون فئة أخرى . أما

ضحايا إيلاج القناني الزجاجية فهم فئة اخرى خاصة وقل مثل ذلك في ضحايا التعذيب « الساكن » (يتعرض الضحية للضرب كلما أبدى أية حركة) . ويدعي قانون أن اولئك الوطنيين الذين كانت لديهم بالفعل معلومات لم تكن تتاح لهم الفرصة لدخول المستشفيات على الاطلاق . أما الذين كانوا يصابون بشتى الامراض النفسانية فهم اولئك الذين لم تكن لديهم في الواقع معلومات يدلون بها للسلطات . والحقيقة ان الشك بدأ في النهاية يخامر قانون بأن الغاية من عمليات التعذيب هي الوقوف على معلومات بل أصبح يعتقد ان الدافع لتلك العمليات لم يكن إلا تعبيراً عن السادية العنصرية و كأن الأمر احدى ضرورات ومستلزمات العالم الاستعماري .

فكثيراً ما يحدث ان الانسان يحارب فكرة ما ثم يعود الى الإيمان بها ايماناً تاماً . وكان سيزير ، وكذلك قانون ، قد شبه الاستعمار بالهتارية . وكان قانون يعلم ان الفرنسيين في الجزائر انما كانوا ينتهجون نفس الاساليب التي طبقوها في الهند الصينية وتلك التي طبقها البريطانيون في كينيا مع ادخال تعديلات تتناسب مع الظروف المحلية السائدة . فبحلول عام ١٩٥٥ كان هنالك ٤٨٠٠٠ افريقي معتقل دون محاكمة في كينيا . وكان

دئكان مكفرسون مساعد مدير الشرطة قدأدلى بشهادة اعترف فيها بأنه وجد حالة بعض المعتقلات أسوأ من حالة المعتقلات التي عاش فيها أربعة اعوام ونصف العام أسيراً لدى اليابانيين (٣) . وبلغت فضائح التعذيب المنظم الذي تمارسه السلطات ذروتها في فضيحة الاحد عشر رجلاً الذين لاقوا حتفهم عام ١٩٥٩ تحت الضرب في معسكر « هولاء » . وكان قانون يرى في كل فضيحة تهز باريس ولندن ظاهرة تتم عن رفض المفكرين الاوروبيين تشخيص الاستعمار كما هو بالفعل والواقع .

ولكن ألم يكن هناك الكثيرون من الاوروبيين ذوي النيات الطيبة في الجزائر ؟ ألم يكن فيها ديمقراطيون وراديكاليون من أصدقاء الشعب الجزائري ؟

على اننا ينبغي ان نتذكر ان قانون أصبح يعمل بعد عام ١٩٥٦ في تونس لحساب الصحف الجزائرية الحرة وخاصة صحيفة « المجاهد » الناطقة بلسان جبهة التحرير الجزائرية . ومن ثم لا بد من التأكيد على ان غالبية المقالات التي كتبها خلال الحرب كانت مقالات كتبها جزائري بالتبني موجهة الى الشعب الجزائري . ففي كانون الاول ١٩٥٧ كتب قانون مقالاً برر فيه

اقدام كمين من رجال جبهة التحرير الجزائرية على ذبح عشرة مدنيين في « ساكامودي » وذلك بحجة انه في ظل الاستعمار الفرنسي ليس في امكان الفرنسي ان يكون محايداً أو بريئاً . فكل فرنسي في الجزائر انما تنطوي نفسه على ازدراء الجزائري الاصلي والرغبة في ظلمه والسيطرة عليه ... وكل فرنسي في الجزائر هو في الحقيقة جندي من جنود الأعداء . وما دامت الجزائر غير مستقلة لا بد من تقبل هذه النتيجة المنطقية . ومضى يزيد الطين بسلة فيقول : « ان على كل فرنسي في الجزائر ان يتصرف كرجال التعذيب »^(٤) ولكن موقف فانون هنا ، وهو يتحدث إلى جمهور جزائري ، يتناقض مع موقفه في مقال نشره في صحيفة سارتر الباريسية « ليه تا مودرن » عام ١٩٥٩ اذ قال هنا : « لطالما ادعى البعض أن جبهة التحرير الجزائرية لا تميز بين مختلف أفراد المجتمع الاوروبي في الجزائر . ولكن اولئك الذين يوجهون للجزائريين أمثال هذه التهم لا يأخذون في حسابهم حقيقتين : « الأولى الحقيقة السياسية التي حددتها الجبهة تجاه الاوروبيين الجزائريين والثانية العون الدائم المستمر الذي قدمه لوحداتنا وخلايانا السياسية »^(٥) مئات الاوروبيين من رجال ونساء . فكم من طبيب اوروبي قدم المساعدات للوحدات العسكرية لجبهة

التحرير وكم من فلاح فرنسي عادي سمح لرجال الكوماندوس الجزائريين بإخفاء الأسلحة في مخازنه . (هنا يغفل قانون ببساطة عنصر الارهاب) ثم يعود إلى تأكيد هذا الادعاء مرة أخرى في كتابه « المعذبون في الأرض » فيقول : « لقد تحطمت لدى كلا الجانبين حواجز الدم والتمييز العنصري » . ولكن هنا نجد الورطسة . ذلك اننا إذا نظرنا إلى الوضع الاستعماري نظرة موضوعية شاملة بوصفه حكماً عسكرياً اجنبياً نجد ان الشعب الخاضع للاستعمار لا يستطيع ان يميز بين فئات المستعمرين ويسمح بالتالي بأن تقترن خطواته بالتردد وان توهم من عزمته بعض الحوادث الفردية الطيبة الصادرة عن العنصر الأبيض . فما دامت الحرب مستمرة فإن كل عربي هو بيغر توماس .

ولكن ماذا بشأن اليسار الفرنسي ؟ ماذا بشأن روح عام ١٧٨٩ وتقاليد اليقوبيين الراديكاليين العظيمة ؟ مع العلم بأن انتخابات عام ١٩٥٦ أسفرت عن فوز الائتلاف اليساري الذي سبق له ان وعد بإحلال السلام في الجزائر . والجواب بسيط . قد خان اليسار عهده الأمر الذي جعل قانون يسخر من هذا سار الذي لم يصدر عنه صوت واحد يعطف على استقلال

الجزائر . أما فروع تلك الأحزاب اليسارية المؤتلفة في الجزائر فلم تزد ، كما قال فانون ، على تردد شعارات قياداتها المركزية كالبيغاوات متجاهلة ان المشكلة الرئيسية هي الاستقلال الوطني قبل أي شيء آخر . ولكن هل يعني ذلك توجيه نفس هذه الاتهامات إلى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي يسانده خمسة ملايين من العمال والفلاحين الذين يكرسون أنفسهم لحمل رسالة ماركس ولينين المناهضة للاستعمار ؟

وكانت قد نشبت عام ١٩٤٥ اضطرابات في منطقة قسطنطين الجزائرية . ودعا الحزب الشيوعي إلى معاقبة مثيريها ووقف بقوة في وجه المطالبة باستقلال الجزائر . ولكن الانتباه انتقل بعد ذلك إلى مسرح الهند الصينية والغى الحزب نفسه اعتباراً من عام ١٩٤٩ في مقدمة معارضي الحرب ضد هوشي منه والفياتمه . وحيثاً زعيم الحزب موريس توريز عمال أحواض السفن الفرنسيين الذين رفضوا شحن الأسلحة المرسلة إلى الهند الصينية كما ان الحزب كان يشجع أعمال التخريب ضد السكك الحديدية التي تنقل الأسلحة . وأرسل زعيم الحزب إلى القائمين بذلك رسائل شكر وامتنان وبذلك أصبح الحلف بين العمال

الكادحين والشعوب الخاضعة للاستعمار حقيقة واقعة .

وهكذا رفع الحزب شعار السلام في الهند الصينية والحرب
الفورية في الجزائر . وأصبحت المفارقة واضحة ، ومرد ذلك إلى
ان الثوار في الهند الصينية كانوا شيوعيين تؤيدهم كلتا دولتي
روسيا والصين تأييداً قوياً . ولم ينجم عن حرب الهند الصينية
تجنيد اجباري ومن ثم لم يمتد الموت فيها ليشمل الطبقة الكادحة
أضف إلى ذلك ان الهند الصينية بعيدة في حين ان الجزائر قريبة
جداً من فرنسا . وكانت يعيش في فرنسا ويعمل عدد كبير من
العمال العرب الذين يعرفهم العمال الفرنسيون ويزورونهم . ومن
الألفاظ الفرنسية القديمة المستخدمة للدلالة على العمال الذين
يُستأجرون ليحلوا محل العمال المضربين كلمة « بدوي » . ثم ان
أفقر العائلات الفرنسية لها أقرباء مستوطنون في الجزائر
يكسحون مثلهم ولا « يستغلون أحداً » . ولقد عبر عن ذلك
الكاتب الالمعي البير كامو فقال : ان عائلي تتألف من أفراد
فقراء لم يستغلوا أحداً .

وهكذا اضطر الحزب الى الوقوف موقفاً متردداً مراوفاً
داعياً الى « السلام » دون أن يطالب بالاستقلال . وفي شهر آذار

١٩٥٦ اقترح نواب الحزب الى جانب منح الحكومة سلطات خاصة تمكنها عملياً من التصرف بالجزائر كما تشاء . وهنا بلغ الاستياء والغضب بايمي سيزير حداً دفعه الى الاستقالة من الحزب ، وكتب الى توريز يقول : « ان ما أريده وأرغب فيه هو ان تخدم الماركسية والشيوعية الشعوب الزنجية لا ان تخدم هذه الشعوب الماركسية والشيوعية » . كذلك دفع هذا الموقف من الحزب الشيوعي بفانون الى النقطة الحساسة نقطة اللارجوع بالنسبة لأوروبا . وفي عام ١٩٥٧ دعا توريز الى استقلال الجزائر ولكن رد الفعل الديغولي في العام التالي حمل معه تراجعاً آخر انتهى بالتخلي عن هذه المطالبة . وفي عام ١٩٦٠ رد توريز على الضغط الذي وجهه اليسار غير الشيوعي معلقاً على ذلك بأن « مقاطعة الحرب هي عبارة سخيفة » وان على الشيوعيين ان يشتركوا في أية حرب مهما كانت رجعية .

ومن الطبيعي ان يكون رد الفعل الاولى لدى فانون مفعماً بالغضب والازدراء . فكانت كل اشارة منه الى جبهة التحرير الجزائرية اشبه ما تكون « بزجاجة مولوتوف » كلامية . ومع ذلك فإنه لم يقف عند هذا الحد بل امتدت سخريته وازدراؤه

لتناول النخبة من اهل اليسار الفرنسي كلهم . فقد تشتتوا مذعورين أمام تهمة الخيانة التي وجهت اليهم وممحوا لعمليات الارهاب التي كان يشنها الجناح اليميني بقنابله البلاستيكية ان تخيفهم . أما تنديدهم بأعمال التعذيب فلم يكن سببه القلق على الضحايا الجزائريين بل الخوف من ان ينقلب الشباب الفرنسيون الى ساديين ومنحرفين . ولقد خصص جورجس ارنولد كتاباً للحكم بالاعداء على جملة بوحيرد فهل كان اعدام انسان واحد بما يثير دهشة الجزائريين ؟ وتعيد سيمون دي بوفوار الى الأذهان ان فانون « لم يستطع على الرغم من اعجابه بسارتر ان ينسى انه فرنسي اخذاً عليه انه لم يستنكر الجرائم استنكاراً كافياً؟ وكان يعتقد انه كان في وسع سارتر ان يهز الرأي العام لو انه اعلن انه لن يكتب كلمة واحدة جديدة الا بعد ان تنتهي الحرب ولم يكن في وسعنا أن نقنعه بأن الأمر ليس كما يقول » (٦) .

والحقيقة انه كانت هنالك شخصيتان لفانون : الأولى شخصية الإنسان التجريبي الواقعي الذي كان يبحث المفكرين الفرنسيين على تبصير الرأي العام الفرنسي بشأن ما تخلفه الحرب الجزائرية من آثار عليه مثل ارتفاع تكاليف المعيشة والضرائب وكبح الحرية السياسية في فرنسا . أما الشخصية الثانية فهي

شخصية الانسان الذي يشجب التعصب الاناني والاجتماعي والذي يريد من اصدقائه الفرنسيين ان يشاطروه مشاعره الشخصية ومفاهيمه ومقاييسه بشأن فظائع الحرب . ولقد كان فانون يعرف التضحيات البطولية التي قدمها اودين واليغ وصديقه الشخصي فرانسيس جينسون الذين شكلوا شبكة مقاومة موالية لجبهة التحرير الجزائرية لم يقض عليها نهائياً حتى عام ١٩٦٠ .

وكان يعرف ان صحافة الجناح اليساري كانت تتعرض باستمرار لمضايقات البوليس وغاراته التفتيشية وان الطلاب كانوا في حالة غليان وان المجندين العسكريين كانوا يتعرضون باستمرار مطرد لدعايات تؤدي الى شل الطاقات العسكرية للجيش الفرنسي . وكان يدرك ايضاً ان توقيع البيان الشهير ، بيان المائة والواحد والعشرين ، يتطلب شجاعة معنوية وجسدية على السواء في تلك الظروف التي كانت فيها منظمة البوليس السري الفرنسية تفرض سيطرتها على البلاد . فقد الزم موقعه في شهر ايلول ١٩٦٠ انفسهم بمساندة اولئك « الفرنسيين الذين يعتبرون ان من واجبهم ان يقدموا » باسم الشعب الفرنسي ، المساعدة والحماية للمظلومين الجزائريين » . بيد ان هذا الاستيقاظ الضمائي الذي يدعو الى الاعجاب لم يكن له أثر يذكر في

الحرب. قلقد كان هؤلاء المفكرون معزولين عن الآلة السياسية وبالتالي لم يكن في وسعهم ان يرفعوا عن كاهل الفلاحين الجزائريين الابعاء التي يلقاها الصراع والحرب الدائران . ومع ان فانون كان يعرف ذلك كله إلا انه لم يستطع ان يتقبله . بل أخذ يتجه خطوة فخطوة وشيئاً فشيئاً نحو قطع الرجاء من افرنسا بل من اوروبا كلها والاعتقاد بانه ليس في وسع الشعب الجزائري ان يعتمد على أية جهة سوى نفسه . ولكن الألم وعدم التصديق والغضب كان يرافق كل خطوة يخطوها في هذا لاتجاه . وكانت هنالك حقيقة واحدة فقط واضحة في ذهنه : لئن كتب التاريخ على الفلاح الجزائري ان يلجأ الى العنف فان ذلك فرض عليه هو الآخر .

على اننا ينبغي ان لا نحسب ان هذه الخطوة كانت بالنسبة اليه أمراً مفروغاً منه . ذلك ان كتابه « البشر السوداء والاقنعة البيضاء » هو اشبه ما يكون بنداء الى العقل ومناشدة للتوفيق لا دعوة للحرب . فقد كان فانون طبيباً محترفاً يتصرف من مواقع المسؤولية ومع ذلك كان يؤوي الارهابيين في بيته وفي المستشفى الذي يعمل فيه ويقدم لهم العلاج ويدرب الممرضات العربيات للعمل في الخلايا الارهابية . ففي تلك الأيام الاولى من

الثورة كانت نسبة كبيرة من غارات الارهابيين فاشلة لأن الثوار أنفسهم كانوا مذعورين أو غير اكفاء . ولكن فانون ، كما تقول سيمون دي بوفوار ، علم الفدائيين كيف يسيطرون على أنفسهم عند القاء قنبلة مثلاً وكيف تكون مواقفهم الجسدية والنفسانية عندما يتعرضون للتعذيب . ويؤيد الشهود كلهم انه كان يستفزع العنف والعنف الماكس والمذابح وأعمال الانتقام الوحشية التي ألزم نفسه بتأييدها .

ولعل هذه السمعة هي التي دفعت بفانون ، على سبيل التعويض ، إلى اعتبار العنف لا مجرد ضرورة سياسية او الطريقة العملية الوحيدة لرفع نير الحكم الاستعماري بل كذلك شكلاً من اشكال بعث الحياة اجتماعياً وخلقياً في الشعوب المغلوبة على أمرها . فالدم المراق يحول الغبار الاستعماري الى تربة وطنية خصبة .

وكان فانون قد تكهن في كتبه وتعليقاته ومقالاته الصحفية التي كتبها تأييداً للثورة الجزائرية بنشوء المشكلات التي طرحت في كتاب «المعذبون في الارض» ففي كتابه «دراسات استعمار ميت» اعتبر ان الصراع المسلح يولد حركة تحرر وتقدم سريعة في التركيب الاجتماعي والذهني للجزائريين . وضرب

مثلا على ذلك اجهزة الراديو . فقبل الحرب الجزائرية كان راديو الجزائر يمثل في نظر الشعب صوت الثقافة الاستعمارية كما كانت برامجها تחדش مشاعر الأسيرة الجزائرية المحترمة ومن ثم لم يكن الا القليلون من الجزائريين الوطنيين يقدمون على ابتياع اجهزة الراديو ولكن بحلول عام ١٩٥٦ و ظهور راديو صوت الجزائر الحرة ، تهافت الناس على هذه الأجهزة بحيث نفذ جميع المخزون منها في غضون عشرين يوماً فقط . وكلما كانت السلطات تلجأ الى مزيد من التشويش على البث كان الاقبال على سماع صوت الجزائر يزداد ويشتد . وانفجر البنيان المتمتد للأسيرة الجزائرية بعد ان أخذ افراد الاسيرة وابناؤها ينضمون الى حركة المقاومة وبدأت سلطة الآباء على اسرهم تنهار . وهكذا غدت القضية الوطنية مصدراً جديداً للولاء والسلطة يعتبر تسامياً بالعادة القديمة المتمثلة في الولاء المطلق لرب الاسيرة .

وفي هذا الحضم ولدت المرأة الجزائرية من جديد . فالنساء العربيات اللاتي اصبحن ينقلن السلاح والقنابل والرسائل بين كتائب جيش التحرير المختلفة ، انطلقن بطبيعة الحال من اسار سجنهن التقليدي . ولاول مرة اصبحت النساء يسافرن منفردات من وهران حتى قسطنطينة أو الجزائر وبالعكس وينزلن في ضيافة

اسر لا علاقة سابقة لهن بها . ولأول مرة أصبحت هؤلاء النسوة يؤوين في بيوتهن المناضلين حتى في غياب ازواجهن كما أصبحن يرتدين الالبسة الاوروبية حيناً والتقليدية حيناً اخر طبقاً لما تقتضيه مصلحة المهام التي يقمن بها . وبدأن بحمل مسؤولية تصرفهن الخاص وتطوير شخصياتهن وعرض وجهات نظرهن الخاصة حتى بحضور اقربائهن من الذكور واخيراً أصبحن يتمتعن بحق اختيار ازواجهن . وكتب قانون يعلق على ذلك فقال « أصبح الزوجان هما الخلية الأساسية للمنزل والتواة الخصبة للشعب وظهر المواطن الصالح والرجل الوطني والزوج العصري في آن معاً ^(٧) » .

لقد رأينا كيف ان قانون كان ميالاً الى اثاره اتجاه كان يقدره ويشجعه ، ورفع الى مرتبة حقيقة عامة . فهو هنا يشبه السكان الاصليين لجزر الانتيل الذين تمسكوا بهويتهم السوداء خلال الحرب العالمية الثانية بالسكان الجزائريين الاصليين الذين احرزوا مرتبة اكثر تطوراً في العلاقات الانسانية والجنسية . فقد نكون مشككين بمدى هذا التحرر واقعياً كما ان معالجة قانون للأسرة الجزائرية والمرأة الجزائرية يفتقر الى بعد اجتماعي فهو لا يميز بين الفلاح وابن المدينة الذي ينتمي الى الطبقة البورجوازية

الصغيرة . فسمويل رودى مصيب إذ يقول « ان قانون ربط كفاح الجزائر في سبيل الاستقلال بثورة اجتماعية دون ان يستخدم عبارات طبقية ^(٨) » . فمن الصحيح بالطبع ان قانون كان متلفاً لاسباب تكتيكية ودعاوية على تعزيز صورة شعب موحد كلياً ويقلل من التركيز على الخلافات الداخلية بين سكان المدن والارياف ، بين الفلاحين والبورجوازيين وهو ما يبحثه بتفصيل واف في كتابه « المعذبون في الأرض » . وحتى لو اخذنا هذا العامل بعين الاعتبار فان انطباعاً قوياً يظل بان قانون بقي تحريراً متطرفاً حتى العام ١٩٥٩ - ١٩٦٠ . أما ارتباطه الكامل بالاشتراكية والثورة الاشتراكية فقد جاء فيما بعد منبثقاً من ملاحظاته في ازالة الاستعمار جنوبي الصحراء في افريقيا السوداء . وكان قانون قد وصف الاستعمار في شهر كانون الاول ١٩٥٧ بأنه « غزو منطقة وظلم شعب ما . هذا كل ما في الامر » . ولكنه ادرك بحلول عام ١٩٦٠ ان الاستعمار يشمل ايضاً تشريب المجتمع الوطني الاصلي ولا سيما مناطق المدن منه بالنظام الاستعماري وقيمه . ونتيجة لذلك فان الاستقلال الرسمي الشكلي وحده لا يعني الزوال الحقيقي للاستعمار .

هل هو اذن تحرري متطرف ؟ من الواضح ان اطلاق مثل

هذا الوصف عليه لا يكون دقيقاً كل الدقة. لقد اصبح منذ حين ثورياً يعقوبياً ملتزماً باللجوء إلى العنف وكان مفكراً متعاطفاً مع المنهجية الديالكتيكية للماركسية. وهو الآن يعتقد قبل أي شيء آخر أن الحرية الحقيقية لا يمكن أن تعطى هبة بل لابد من انتزاعها انتزاعاً. وفي ذلك ما يوضح مقولته بأنه من الضروري مقاومة المحاولات الفرنسية الرامية إلى تحديث الاسرة الجزائرية وازالة حجاب المرأة والغاء سجنها المنزلي. ففي رأيه ان « المرأة التي ترى دون ان تُرى تثبط عزيمة المستعمر لانها تلغي بذلك امكان التعامل معه ». والحقيقة ان موقف قانون من قضايا المرأة هو اقرب الى التفكير الغربي المتحرر منه الى المواقف التقليدية للمجتمع العربي أو الافريقي، ولكنه يرفض النظرة التجريبية الضيقة التي تنطوي على الاعتقاد بان الشيء الحسن يبقى حسناً سواء جاء بطريق العطاء والهبّة أو بطريق الاخذ والانتزاع. على انه من الممكن الاعتراض بان قانون يعرب في بعض الحالات عن اعتقاده بان الدولة الاستعمارية «تحترم» وتساند ثقافة السكان الاصليين بقصد تكبيرهم وعرقلة تقدمهم من جهة وتهديثهم من جهة اخرى، في حين انه يشجب في حالات اخرى صاحب العمل الفرنسي الذي يدعو مستخدمه الجزائري مع زوجته لاحدى

المناسبات الاجتماعية معتبراً ذلك نوعاً من الاغتصاب المعنوي .
والجواب عن ذلك هنا (وان لم يذكره قانون صراحة) هو ان
الوسائل الاستعمارية تختلف وتتفاوت . فاستراتيجية الحكم في
مستعمرات بريطانيا الافريقية السوداء تقوم بنوع خاص على
اساس الحكم بصورة غير مباشرة واستغلال اشكال الحكم
التقليدية على نحو يصبح معه رؤساء القبائل مرتبطين بنظام الحكم
الاستعماري ومعتمدين عليه للحفاظ على نفوذهم وسلطتهم بالإضافة
الى استغلال الخلافات بين سكان المدن والارياف . فالاحتواء
السياسي الكلي يبذر بذور الاحتواء الثقافي . واذن فان قانون
مصيب من هذه الزاوية : فدعوة صاحب العمل الفرنسي لمستخدمه
العربي وزوجته تعني ضمناً فرنسة الجزائريين .

ويوضح قانون سيكولوجية مقاومة « التقدم » ضمن الاطار
الاستعماري في ابحاثه وممارساته الطبية . فزيارة الطبيب الابيض
للجزائري يسبقها قيام البوليس بتجميع السكان كلهم . ثم ان
الكثيرين من الاطباء البيض يملكون أيضاً مساحات من بساتين
الكرمة أو حقول الارز ، انهم استعماريون حقيقيون بل هم جزء
لا يتجزأ من النظام الذي يستند إلى قوة البوليس والجيش . وفي
هذا الصدد يشير الصحافي الأرجنتيني ادولفو جيللي إلى انه سأل

مرة رجلاً بوليفياً فقيراً من عمال المناجم عن السبب الذي منعه من إرسال ابنه إلى مركز الخدمات الصحية الأمريكي المجاور ليجري تطعيمه فرد على الفور « من يدري أي نوع من المطاعيم القدرة تحققنا بها هؤلاء الأمريكيون لكي يحولوا الشعب البوليفي إلى شعب يتصف بالبلاهة والغباء ليسهل استغلاله »^(٩).

وتساءل فانون عن مستقبل الجزائر « بعد الحرب » فقال انه ليس في الامكان بعد الآن ابقاء التفاوت بين الشعب وحكامه . ولكنه كان يعرف ، وهو الذي عاش في تونس قريباً من مركز الحكومة الجزائرية المؤقتة في المنفى ، الكثير عن الخلافات بين الاجنحة المختلفة داخل الحركة الوطنية الجزائرية ومع ذلك لم يبحث هذا الموضوع . فمن المعروف انه كان شخصياً من المقربين من بن خدة وسعد دهب ، ولكن الجزائر لم تكذبظفر باستقلالها في تموز ١٩٦٢ حتى قام بن بيلا بمساندة العقيد هواري بومدين ووحداته العسكرية بتجريد بن خدة ، من السلطة وابعاده عنها . وقدمت أثر ذلك قائمة واحدة من المرشحين للمجلس الوطني ليجري الاقتراع عليها مجتمعة دون منافسة . فقد اعلن بن بيلا ان الديمقراطية رفاهية ليس في وسع الجزائر ان تتحملها . وصدر بعد ذلك دستور عام ١٩٦٣ الذي اسبغ

الشرعية على نظام حكم الحزب الواحد . وعلى الرغم من التأميمات والمصادرات على نطاق واسع فقد ظلت الحكومات الجزائرية المتعاقبة تتعاون مع فرنسا تعاوناً وثيقاً ناقلة عنها الكثير مما كانت قد اقامته من انظمة بيروقراطية وقربوية وتكتيكية في الجزائر . غير انه في عام ١٩٦٥ قام بومدين بمساعدة الجيش بازاحة بن بيللا من مركز السلطة .

وكان قانون ينادي بان رسالة الصراع المسلح هي اعادة بناء البلاد وبعثها . ولقد قدرت جبهة التحرير الجزائرية مجموع ضحايا الحرب شاملاً ذلك الموت جوعاً بأكثر من مليون نسمة من بين مجموع عدد السكان البالغ حينذاك نحو ٩ ملايين نسمة . والمعروف ان اكثرية السكان الاوروبيين فروا من البلاد . وهكذا نجد انه بحلول عام ١٩٦٢ اصبحت الصناعة الجزائرية بالشلل وكان عدد العمال العاطلين عن العمل يبلغ نحو مليوني نسمة كما كان هنالك نحو اربعة ملايين نسمة آخرين ليس لديهم ما يقيم الأود . وفي ظروف كهذه لم يكن في وسع الجزائر إلا ان تبقى معتمدة على المساعدات الاقتصادية والفنية التي تتلقاها من فرنسا وان تسمح لها ، فوق ذلك ، بمواصلة تجارتها النووية في الصحراء . ومن المعروف ان قانون كان يتمتع باحترام بالغ في اوساط المفكرين الجزائريين . ويقال إن بن بيللا وبومدين كانا مجرد مرددين لأرائه في الروح الثورية الكامنة لدى الفلاحين .

ولقد اطلقت الحكومة الجزائرية اسمه على أحد الشوارع
الكبرى واحدى المدارس الثانوية الجزائرية. ولكن الفلاحين
الجزائريين تفرقوا مرة اخرى بعد النصر وعادوا الى طرق
الزراعة الفردية على نطاق صغير والى الصراع الازلي الابدى مع
التربة لانتزاع لقمة العيش منها .

٥- جُزُر الأَنْتِيل وَأفريقيَا وَالْعَالَم الثَّالِث

مرت جزر البحر الكاريبي جميعها في أُطُر مشتركة من التدخل التاريخي في شؤونها الداخلية : من غزو واستعمار وَاِبَادَة شعوبها الاصلية واستيراد العبيد من افريقيا الغربية للعمل في حقول السكر والبن فيها. وكان الرق قد الغي في الامبراطورية الفرنسية عام ١٧٩٤ ثم عادت الدولة فاباحته في عهد نابليون ولكنها الغته نهائياً بعد الثورة الثانية عام ١٨٤٨ . اما في بريطانيا فقد الغى البرلمان الرق نهائياً عام ١٨٣٤ . ولكن كما ان تحرير الاقنان الروس عام ١٨٦١ لم يسفر عن تحرير اقتصادي حقيقي كذلك ظل فلاحو جزر الانتيل ينتجون قصب السكر بكدهم وعرقهم ليعود ربحه على ملاك الارض . وفي عام ١٩٥٨ قام اندريه مالرو برحلة عبر المناطق الفقيرة من جزر الانتيل . علق على مشاهداته بعد ذلك فقال انه على الرغم من ان

مطالب الوطنيين ليست في بعض الاحيان معقولة فان لهم ملء الحق بان لا يكونوا معقولين .

وكان فانون يحس بالاسف لانه لم يكن يحارب في سبيل تحرير ارض وطنه . وكان قد قال لسارتر وسيمون دي بوفوار « قبل كل شيء ، لست اريد ان أصبح ثورياً محترفاً » . وفي شهر كانون الثاني ١٩٥٨ استعرض بلهفة الامكانيات السياسية لجزر بحر الكاريبي . وكان يرى اقامة دولة فيدرالية من هذه الجزر كلها ولكن العقبات في وجه ذلك كانت كثيرة . فسكان هذه الجزر ذوو لغات وثقافات مختلفة (بريطانية وفرنسية واسبانية) كما ان مستويات التطور والتقدم السياسي فيها متفاوتة فجمايكا وبريادوسى وترنيداد كانت على عتبة اقامة اتحاد واستقلال . وكان الزعماء السود في الجزر التابعة لبريطانيا مثل نورمان مانلي في جمايكا واريك ويليامز في ترنيداد ، اقرب الى الديمقراطية الاشتراكية منهم الى الماركسية . ومع ان الحركة الماركسية التي كان يقودها في غيانا البريطانية شدياً جاغان كانت تشكل املاً معقولاً إلا أن جهود السياسيين السود والبيض على السواء تضافرت لحصره والحد من نشاطه وفاعليته . فكاسترو وجيفارا لم يكونا قد استوليا على زمام الحكم في هافانا بعد ومن ثم فان

فانون لم يشر إليها. أما الجزر التابعة لفرنسا فقد ظل المزارعون من اصحاب الاملاك فيها اقوياء وظلت اجور العمال منخفضة وتأخر وضع تشريعات للحماية الاجتماعية وكانت الانتخابات خاضعة جزئياً للتلاعب والتزيف . واما النواب الستة الذين كانوا يمثلون جزر الانتيل فقد ابتلعهم مجلس النواب في باريس وضاعوا فيه . ولقد وصف سيزير هذه الحالة فقال ان جزر الانتيل اصبحت جزءاً من فرنسا مع بقاءها تعاني من الفقر المدقع .

وشهد هذا العام نفسه ، عام ١٩٥٨ ، انهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة واستيلاء ديغول على زمام السلطة في باريس . وسرعان ما قرر ديغول احباط اية احتمالات لامتداد الثورة إلى أجزاء أخرى من الامبراطورية الفرنسية غير الجزائر ولا سيما في المناطق السوداء منها . فاجرى استفتاء خبير فيه المستعمرات بين الاستقلال الفوري او الانضمام التام الى فرنسا او انتهاج واحد من شكلين من اشكال الارتباط بفرنسا ضمن مجتمع فرنسي جديد .

وفي ذلك الاستفتاء قال سكان الانتيل « نعم » للانضمام

التام . فاوفد ديغول مالرو الروائي واليساري السابق وأحد أبطال الحرب الاهلية الاسبانية الذي اصبح فيما بعد وزيراً في عهد الجمهورية الفرنسية الخامسة وذلك لكي يربط الانتيل وغيانا بفرنسا . وكان هذا هو مالرو ، بأفكاره الجديدة عن الانسان الغربي والحضارة الغربية ، الذي تحدث عنه فانون بسخرية وازدراء .

ومهما يكن من أمر فقد أخذ مالرو يرتحل من قرية الى قرية وهو يتلقى اكايل الزهور التي ينقلها الى اقدم الجمهورية الجديدة . وفي بلدة « فورت دي قرانس » استقبله رئيس البلدية الذي كان ايميه سيزير نفسه بهذه الكلمات : « انني احيي في شخصك الشعب الفرنسي العظيم الذي تشدنا اليه روابط عاطفية وثيقة (٢) » .

وعمد مالرو بعد ذلك الى تذكير الناس باولئك الابطال من شعب المارتنيك الذين خروا صرعى دفاعاً عن فرنسا في حربين عالميتين . اما فانون فقد اشار مرة متهمكاً الى « اولئك الزوج الذين حاربوا دفاعاً عن حرية فرنسا او عن الحضارة البريطانية » . ولنعد الى الجمهور الذي كان يصغي الى خطاب مالرو فقد بدأ

بعد نهاية الخطاب بالقاء النشيد القومي الفرنسي ، نشيد المارسييز .
وهنا أخذ مالرو يسخر ، بعباراته المجازية التي تتأرجح بين اليمين
واليسار ، بالأفكار التي يمثلها قانون وتلك التي كان يدافع
عنها سيزير فقال ان النشيد كان صيحة الحرية السوداء مقرونة
بالآمال الثورية والدعوة الى الأخوة الحقيقية (٣) .

وبعد ذلك أخذ الجمهور يصيح : يحيا ديغول ، يحيا سيزير ثم
بدأت حفلة رقص عام وضع الناس فيها على وجوههم اقنعة تمثل
الشیطان . ويقول قانون ان امثال هذه الطقوس تعبر عن
العواطف المكبوتة لشعب مظلوم . اما مالرو فقد فسر لها على
نحو أوسع بكثير فقال انها مهرجان يعبر عن السعادة المطلقة
الناجمة عن « انتقاذ البشرية لنفسها من نفسها » . وكان قانون
قد وصف في كتابه « بشرة سوداء واقنعة بيضاء » قدرة سيزير
على استغلال براعته في اللغة الفرنسية واتقانه لها في اثاره امواج
من الحماسة في بلدة قورت دي فرانس . ولم يتغير منذ ذلك الحين
شيء سوى ان هذا الخطيب المفقوه قد وضع مواهبه في خدمة
« الشعب الفرنسي العظيم » بدلا من وضعها في خدمة « الكونغو
التي تضج بالغابات والانهار » .

وفي مقال كتبه قانون بعد الاستفتاء مباشرة كان رد الفعل

لديه على نتيجة الاستفتاء هو الاعراب عن اشد الاستياء . وكره
فانون ان يعتبر سيزير خائناً ولكنه انذره قائلاً انه لا يحق لأي
زعيم أن يتاجر باحترام الجماهير ومحبتها له عندما يتناول الأمر
استقلال البلاد بالذات . وبعد عامين اعرب بجهام عن ترحيبه
البالغ بثورة نشبت في المارينيك ودامت ثلاثة ايام . ففي شهر
كانون الاول ١٩٥٩ قطع الثوار خطوط المواصلات واحتلوا
بلدة فورت دي فرانس مدة تزيد على ست ساعات . وكان
كاسترو قد استولى في غضون ذلك على زمام الحكم في كوبا . فعاد
فانون مرة اخرى الى منطقة البحر الكاريبي مشجعاً بالتفاؤل .
ولكن جزر الانتيل لا تزال حتى اليوم جزءاً من فرنسا .

أما في افريقيا السوداء التي بدأ فانون يلقي نحوها نظرة
متعاطفة فقد كانت حصيلة الاستفتاء مماثلة لما جرى في جميع الانحاء
الاخرى من الامبراطورية الفرنسية باستثناء غينيا المستعمرة
الوحيدة التي آثرت الاستقلال . ويمكن القول بصورة عامة بان
تكتيكات قانون كادر اثبتت انها مؤثرة فعالة . وكان هذا القانون
قد صدر في عام ١٩٥٦ ثم عدل عام ١٩٥٧ وكان يقضي بمنح حق
الانتخاب لجميع السكان في جميع انحاء الامبراطورية الفرنسية
كما يقضي بمنح استقلال ذاتي للحكومات الافريقية يتناول الشؤون

المحلية . ولكن قانون شجب هذا القانون كما شجبه مؤتمرات الراديكاليين الافريقيين التي عُقدت في باماكو وكوتونو وكذلك شجعه جبهة التحرير الجزائرية . وقد اثمرت جهود تلك المؤتمرات بالفعل وحقت الاغراض التي من اجلها عقدت . فقد اصبح السياسيون الافريقيون يتمتعون بالسلطة في بلادهم الخاصة كما اصبح في وسعهم في الوقت نفسه ان يعتمدوا على المساعدات والاستثمارات الفرنسية . ومن المسلم به ان بعض هؤلاء السياسيين كان اكثر تساهلا من البعض الاخر . وكان اشد هؤلاء تفاهة في رأي قانون هو هوفيت بوانييه من ساحل العاج . وكان هذا السياسي الزنجي يكاديكون عضواً دائماً في جميع الوزارات وكان من المتمسكين بنظرية ابقاء الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا . أما سنغور فقد كان قانون يعتبره بطلاً . ومع ذلك ففي ظل زعامة سنغور اقترح ٩٧ في المائة من سكان السنغال الى جانب الانضمام إلى فرنسا . وكان سنغور يتباهى بتعيين الاوروبيين في وظائف ادارية كبيرة في بلاده . ولقد شكوا قانون من ذلك بمرارة ولكن الخيانة كانت قديمة راسخة في صفوف السياسيين السنغاليين . فغبريل بلقرين احد قدماء السنغال المولدين ومن زعماء الثورة المناهضة للفرنسيين التي نشبت عام ١٨٠٢ أصبح بحلول عام ١٨٢٣ رئيس بلدية مدينة

سانت لويس بناء على أمر الحكومة الفرنسية . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمان أي في عام ١٩١٤ انتخب الزنجي الراديكالي بليز ديانى لتمثيل شعبه في مجلس النواب في باريس ولكنه بحلول عام ١٩٢١ أصبح في صفوف المدافعين عن الامبراطورية الفرنسية في وجه منتقديها في مؤتمر الوحدة الافريقية . وبحلول عام ١٩٣٠ اوفدته حكومة تارديو الرجعية الى مؤتمر العمل الدولي للدفاع عن موقف الحكومة الفرنسية من اعمال السخرة . وكما كان بليز ديانى يعيش في دكار حياة ملؤها الرفاهية ويقم في منزل كبير قدمه له بنك افريقيا الغربية كذلك كان شأن سنغور من بعده .

على ان المجتمع الفرنسي المتجدد الذى بناه ديغول قد لقي حتفه بحلول عام ١٩٦٠ فلم يكد يصل ذلك العام الى نهايته حتى كانت جميع المستعمرات الفرنسية في افريقيا الغربية قد ظفرت بالاستقلال . ولكن قانون ادرك سريعا ان بلسم الاستقلال لم يحل بحد ذاته جميع المشكلات الافريقية . وتحدث عن فكرة الوحدة الافريقية وعن تحاذل الكثيرين من انصارها . وفي شهر ايلول انهار ايضا اتحاد مالي (كان يضم السنغال والسودان الفرنسي)

وكانت داهومي وفولتا العليا قد انسحبتا من قبل. ومن الطبيعي ان العداء كان مستحكماً بين هوفيث بوانيـه المحافظ من ساحل العاج وبين مالي (السودان الفرنسي سابقاً) الردايـكالية . وفي حين ان غانا وغيـنيا ومالي شددت على التعاون السياسي فيما بينها فان ليبريا ونيـجيريا كانتا تؤثران التعاون على صعيد اقتصادي . اما الجمهورية العربية المتحدة فقد كانت تتحدث عن التعاون الثقافي . ومع ذلك فقد كانت النزعة الاقليمية القبلية والشكوك هي السائدة . وكان كل فريق يحاول حماية نصيبه الخاص من « الكلا » . ووسط هذه التناقضات وصل قانون عام ١٩٦٠ الى غانا ليشغل فيها منصب سفير الحكومة الجزائرية المؤقتة . وشهد قانون عن كـثب بعض المناورات والاحاييل الدنيئة فاستنتج من ذلك كله ان الاقطار التي توصلت الى الاستقلال بالطرق السلمية السياسية وقعت في قبضة طبقة ورجوازية لا تقل بورجوازية وشوفينية عن الطبقة لبورجوازية الفرنسية التي كانت قائمة في عهد الثورة الكبرى . وجاء رفض افريقيا السوداء توحيد جهودها لاتخاذ جـراء عسكري ضد افريقيا الجنوبية البيضاء ليعمق فيية امله .

ولقد نقله ذلك الى المرحلة الثالثة والأخيرة من تطوره
كفيلسوف اجتماعي . ففي المرحلة الاولى حمل على التحيز
والغموض والارباك ، وفي المرحلة الثانية حول نار هجومه الى
الاستعمار نفسه . اما في المرحلة الثالثة فقد ادرك ان ازالة
الاستعمار لا يمكن ان تكون ثورية اصيلة إلا اذا اقترنت
باشتراكية صحيحة اصيلة . وفي الوقت نفسه لم يعد التهديد
الخارجي ، على الاقل في افريقيا الغربية ، يتمثل في الحكم
الاستعماري المباشر بل أصبح العدو رقم « ١ » هنا هو الاستعمار
الأذكي ، الاستعمار الجديد . وألقى قانون بأنظاره على العالم
بأسره . انه ليس شيوعياً وليس ماركسياً ملتزماً . ولكنه كان
يؤمن بأن الكتلة السوفييتية قدمت من المساعدات الى العالم
الثالث اكثر مما قدمه الغرب ويعتبر الفظاظ التي ابداهما
خروشوف داخل اروقة الامم المتحدة وظهور كاسترو
فيها باللباس العسكري عام ١٩٦٠ ، عملاً مشروعاً . اما
عن الصين فلم يتحدث إلا قليلاً جداً اذ لم يكن الخلاف
الكبير بين الصين وروسيا قد ظهر بعد الى العلن ظهوراً تاماً .
وأما الولايات المتحدة فقد كان موقفه منها مقترناً بالعداء
التام الدائم . لقد كان يعرف كل شيء عن دور جنود البحر

الامريكيين في امريكا اللاتينية . فكتب في عام ١٩٦١ يقول
« لقد استولى كاسترو على زمام الحكم في كوبا ثم سلمه للشعب^(٤) » .
ومن اجل ذلك عكفت الولايات المتحدة على تنظيم فرق
لثورة المعاكسة . وكان الدولار القوي يستغل بشراة
آبار النفط في الشرق الاوسط ومناجم بيرو والكونغزو
والمزارع التي تمتلكها شركات «يونيتد فروت» و «فايرستون»
وغيرها . وكان فانون يأمل بزيارة كوبا ولكن الموت
عاجله .

على ان أشد الدروس التي تلقاها فانون مرارة في الاستراتيجية
الغربية للاستعمار الجديد كان ذلك الدرس الذي تلقاه من
خلال سقوط صديقه باتريس لومومبا واغتياله المأساوي . ومن
المصادفات ان الاثنين ولدا في عام واحد تقريباً وتوفيا في نفس
الوقت ايضاً .

كانت الروح القومية المتطرفة عند لومومبا من نوع عصري
نسبياً . وكان كلا الرجلين في نظر الجنس الابيض زنجياً غريباً
ولكن في حين ان فانون كان يلقي على الاقل تقديراً ثقافياً
فكرياً في فرنسا فان لومومبا لم يتمتع بشيء من ذلك . وفي

كتاب وضعه خلال العام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ قال « اعتقد انه سيكون من الممكن في المستقبل القريب نسبياً منح الحقوق السياسية للنخبة من الشعب الكونغولي والبلجيكين المقيمين في الكونغو ... ولكن منح هذه الحقوق للأميين وللأناس الذين لا يحسنون استخدامها هو أمر غير وارد، لانه يعني وضع اسلحة خطيرة في أيدي اطفال^(٥) ». ومضى يقول « ان الاستقلال ليس له معنى في الوقت الحاضر فالمطلوب هو اصلاح تقديمي وجعل جهاز الادارة افريقياً ». على ان لومومبا بدأ يتجه سريعاً منذ ذلك نحو التطرف ولكنه كان اقرب الى طراز الوطنيين اليعاقبة منه الى الاشتراكيين ومن ثم تبدو عبارته المعروفة « انا هو الكونغو فالكونغو هو الذي صنعني وأنا الآن اصنع الكونغو » اقرب الى روح فلسفة نكروما منها الى روح فلسفة فانون . ومن المؤكد كذلك ان خصومه الرئيسيين كانوا اصحاب شركات المناجم الغربية واتباعهم من الجنود المرتزقة . كذلك كانت الحكومات الغربية قد بدأت تعتبره تهديداً خطيراً لنفوذها في افريقيا الوسطى وأصبح لومومبا في غضون ذلك من دعاة الوحدة الافريقية المتطرفين . ولو امتد به العمر واتيح له ان يقول السياسة الاجتماعية وفقاً لما كان يرسمه ويتصوره لأصبح الكونغو على

غرار غينيا أو غانا أكثر مما أصبح كوبا افريقية كما كان قانون يريد .

ولكن قانون أحس على كل حال وبحق ان سقوط لومومبا كان ضربة قوية للقضية الافريقية . ففي مقال نشره في صحيفة « افريك اكسيون » في شباط ١٩٦١ ، شجب الادوار الرجعية التدخلية لاتحاد المناجم ونظام حكم روديسيا واخيراً الامم المتحدة . وقال إن لومومبا قد أخطأ في دعوة الامم المتحدة للتدخل فقد ثبت ان الامم المتحدة عميلة للقوى المناوئة للاشتراكية وعميلة ايضاً لقوى الاستعمار الجديد^(٦) . و اضاف ان بعض الدول الافريقية مثل غانا ارتكبت خطأ مأساوياً حين بعثت بجيوشها الى الكونغو تحت امرة الامم المتحدة . واصر قانون على انه كان على هذه الدول ان تتدخل مباشرة لتأييد لومومبا . (من الوجهة العملية لا مفر لدولة صغيرة مثل غانا من ان تعتمد على دولة صناعية لنقل قواتها العسكرية جواً) .

وكان قانون نفسه قد عكف على العمل دون كلل او ملل في سبيل وحدة الوسيلة والهدف لا داخل افريقيا السوداء وحسب بل كذلك بين الدول الواقعة جنوبي الصحراء والجزائر . بل

انه كان يدعو الى ما هو ابعد من وحدة القارة السوداء اذ كان ينادى بوحدة «العالم الثالث» كله . وبوصفه صحافياً منتسباً الى جبهة التحرير الجزائرية لم يكن يمتدح الزعماء الاثراكين مثل نهرو وسو كارنو ونكروما وحسب بل يمتدح ايضاً الحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس وملك المغرب أي رجال الدولة الذين اعتبرهم (ضمناً) فيما بعد خونة للتيار الاصيل تيار مكافحة الاستعمار الجديد . وكان يدعو الى تأييد الثائر الأنغولي روبرتو هولدن باعتبار ان كل حركة ثورية في العالم الثالث تعتبر خطوة نحو توحيد الجهود المجابهة للاستعمار والاستعمار الجديد .

وكان الجنرال شال الفرنسي يبتثي الالغام على طول حدود الجزائر مع كل من تونس والمغرب وذلك بغية منع تدفق الامدادات على جيش التحرير الجزائري داخل الولايات . وفي عام ١٩٥٩ اصطدمت سيارة جيب كان يستقلها فانون بلغم على الحدود المغربية الجزائرية فاصيب فانون باثني عشر كسراً في سلسلته الفقرية صاحبها اشتراكات ومضاعفات خطيرة ، فذهب إلى روما للعلاج الطبية . ونقل عن لسان صديقه الدكتور برفيل جومينر أن السيارة التي كانت تنقله من مطار روما إلى المدينة

قد تعرضت لعمل تخريبي على يد ارهابيي الثورة المعاكسة المعروفين باسم عصابة « اليد الحمراء » . ولكن السيارة انفجرت قبل الموعد المحدد فقتلت طفلين كانا يلعبان في الشارع . وبينما كان قانون في المستشفى في روما لاحظ ان احدى الصحف اشارت إلى وجوده في المستشفى فانتقل إلى غرفة اخرى . وفي تلك الليلة بالذات اندفع نحو الحجرة التي اخلاها عدد من المجرمين واطلقوا النار على السرير الخالي . ولم يكن قانون يدخل بعد ذلك إلى شقة جومينز الا بعد ان يفتشها تفتيشاً دقيقاً (٧) .

وفي العام التالي وصل قانون إلى أكرا وبدأ بتنظيم طرق الامدادات القادمة الى الجزائر من جنوبي الصحراء . وتصور « امكان شق اقنية ضخمة للملاحة عبر الصحراء ... وامكان تدفق الرجال من مالي والسنغال وغينيا وساحل العاج وغانا ونيجيريا وتوغولاند ليتسلقوا تلال الصحراء وينقضوا على معقل الاستعمار (٨) . وسرعان ما اتخذ قرار ببناء قاعدة لامداد الولايتين الاولى والخامسة الواقعتين جنوبي الجزائر . وهنا انطلق قانون في بعثة استكشافية لهذا الغرض ولكن رجال المخابرات الفرنسيين كانوا متيقظين وانتهى الوفد بوصول افراده إلى غرف

التحقيق في بئر الحكيم . وعندما وصل هو ورفقائؤه إلى منزوفيا بليبريا اكتشفوا ان الوسيلة الوحيدة للوصول من هناك إلى كوناكري في غينيا بطريق الجو انما هي بطائرات شركة الخطوط الجوية الفرنسية . ولقد تنبه فانون واصدقاؤه إلى الاهتمام غير العادي الذي ابداه نحوهم موظفو الشركة الفرنسية فتجنبوا بحكمة الطريق الجوي سالكين طريق البر . وعلم بعد ذلك ان الطائرة التي كادوا يمتطونها قد غيرت اتجاهها لتهبط في ابيدجان بساحل العاج التي كان نظام الحكم فيها بزعامة هوفيت بونيه يتعاون تعاوناً وثيقاً مع مكتب المخابرات الفرنسي .

أما في باماكو فقد قدم لهم الزعيم المالي موديبو كيتا كل مساعدة ممكنة . ومن هناك توجه الوفد عبر طريق طويل خطر الى كل من غوا وبوريسا وتانزاسه حيث اجري اتصالات مع الزعماء المحليين جامعا شتى المعلومات المفيدة عن الظروف المحلية وهنا وقع فانون في قبضة مرض مميت ، مرض اللوكيميا . وبدأ وزنه ينخفض بسرعة . فسافر الى الاتحاد السوفيتي لتلقي العلاج . ولكن الاطباء هناك نصحوه بالسفر الى واشنطن . وفي صيف عام ١٩٦١ قال لجومينر « لقد علمت ان لدي ثلاثة اعوام

أو اربعة اخرى اعيشها . ولهذا اصبح من الضروري ان اسارع الى قول وعمل اقصى ما استطيع ... ولكن اخوتي الجزائريين طلبوا مني ان أعنى بصحتي ^(٩) . بيد ان طاقته الانفعالية العصبية تزايدت واستغرق في كتابة مؤلفه « المعذبون في الأرض » وهو الكتاب الذي علق عليه سارتر فقال « ان العالم الثالث يكتشف نفسه ويتحدث الى نفسه من خلال هذا الصوت » .

فما هو المقصود « بالعالم الثالث » ؟ انه يعني بمفاهيم العلاقات الدولية والدبلوماسية « الحياد الايجابي » و « عدم الانحياز » نحو أي من الغرب أو الشرق ، ويعني بمفاهيم التطور الاقتصادي والتأخري الشعوب المتخلفة الفقيرة والتي كان عدد كبير منها حتى عهد قريب شعوباً مستعمرة . غير انه من سوء الحظ ان هذين المفهومين غير متطابقين . فاذا نظرنا الى العالم الثالث من خلال المفهوم السياسي المتطرف اضطررنا الى استبعاد الصين وفيتنام الشمالية وكوريا الشمالية من جهة وكوريا الجنوبية وقايلاند وعدد كبير من الدول الامريكية اللاتينية من جهة أخرى . ثم ان بلداً مثل يوغوسلافيا يعتبر بلداً بارزاً في صفوف الدول غير المنحازة ولكنه من زاوية التطور الاقتصادي والصناعي

لا يمكن ان يوضع في مصاف مالي او الهند .

ومن هنا فان المهم في نظر قانون في تصنيف دولة ما في عداد العالم الثالث هو عنصر الفقر وانعدام التصنيع نسبياً فضلاً عن وجود طبقة واسعة من الفلاحين الذين يناضلون لرفع مستواهم ومحاربة الاستعمار الجديد . انها بصورة عامة تلك الحالة التي تعتبر فيها فكرة العالم الثالث فكرة شاذة حيث تهيمن رسمياً العقيدة الماركسية - الشيوعية .

وهنا يكون التأكيد والتركيز على تحالف المصالح بين الطبقة العاملة في الدول الاشتراكية من جهة وجماهير الفلاحين في الشعوب المتخلفة من جهة اخرى . وعلق على ذلك ف . استامبولي وهو تونسي معجب بقانون فقال انه من التضليل « ان يعتبر قانون ان العالم الثالث بكامله منقذ للبشرية على أساس مهمة او رسالة محددة منوط به اداؤها (١٠) » ولكن من الواضح ان استامبولي انما كان بذلك يبدي تلهفاً على ان يزداد « قانون » اقتراباً من الخط الماركسي .

يرى قانون ان اوروبا مدينة للعالم بالشيء الكثير الذي ينبغي سداده ، ففي اعتقاده ان ما تنعم به اوروبا اليوم من

الرفاهية هو فضيحة مخزية لأنه مستمد في الاصل من تراكمات الثروة التي بُجِعت من عرق العبيد وُنُهبت من ثمار ومنتجات ارض السكان الاصليين للمستعمرات ، ان اوروبا في نظره هي صنع العالم الثالث . وان الاموال التي تنفقها في سباق التسليح وحده كغيبيل بان يترك اثراً مذهباً في اقتصاد الاقطار المتخلفة . ومن هنا يرى فانون ضرورة وضع حد للحرب الباردة ويضيف انه اذا كان من الانصاف ان يدفع اديناور تعويضات الى اسرائيل فلماذا لا تقتفي الدول الاوروبية الغنية الاخرى أثره ؟ فيبدون تقديم مساعدات كبيرة من اوروبا الى الاقطار المتخلفة تكون حالة الاقطار الاخيرة ميسوساً منها . على ان فانون لم يشأ ان يعتمد على حسن العدالة المفقود لدى الاوروبيين وحسب بل تجاوز ذلك الى انذارهم بانه اذا ما استمر العالم الثالث في وضعه الحالي من الركود فان الرأسماليين الغربيين سيضطرون الى التعرض لاغلاق مصانعهم بحيث تسود اوروبا موجة جديدة من القلق .

وتختلف نظرة فانون من هذه الزاوية اختلافاً شديداً عن نظرة اولئك الذين يدعون أن أقطار افريقيا وآسيا لم تكن تظهر قبل عهد الاستعمار أية دلائل على تطوير ارادتها وثقافتها وتنظيماتها

ومواردها الفنية بغية الانطلاق نحو تقدم صناعي . ومعنى هذا الرأي ان الاستعمار عملية مفيدة دون شك وليس عملاً استغلاليًا ، فقد ارسى أساس انطلاقة صناعية . (و اترك جانباً هنا غباء اولئك المؤرخين الذين يزعمون ان الشعوب الاوروبية انما أقامت امبراطورياتها خلال القرن التاسع عشر بطريق المصادفة) وليس في الامكان الآن بحث هذه النقطة بالتفصيل ولكن لا جدال في ان كروسو الاستعماري ، خلافاً للدعاء القائل بأنه حمل معه الفوائد الاقتصادية الى الصحراء المجدية ، قد شوه وأحياناً دمر حضارات مزدهرة واقتصاداً نامياً . ومن المعروف كذلك انه في غضون الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر تم نقل حوالى ١٥ مليون نسمة من العبيد من افريقيا الى الأمريكتين دون ان يحسب عدد اولئك الذين كانوا يفقدون أرواحهم أثناء الطريق أي خلال عبور المحيط الاطلسي كما جرى في حادثة الـ ١٧٣ عبداً المعروفة ، فقد مرض هؤلاء العبيد فألقى بهم قائد السفينة في البحر لتخفيف الحمولة وذلك في عام ١٧٨١ . وفي عام ١٧٨٨ كانت ثروة المزارعين البريطانيين من أصحاب مزارع قصب السكر في جزر الهند الغربية تقدر بنحو ٧٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه استرليني . والواقع ان بعض المراقبي الشهيرة مثل مرفاي

ليفربول وبريستول قد أثرت بسبب تجارة العبيد . وكانت الرساميل التي ترا كمت في هذه المرافئ هي المصدر الذي تكون منه الفائض الرأسمالي الذي عليه بنيت الثورة الصناعية في بريطانيا . أما الأرباح التي جنتها بريطانيا من مستعمراتها فقد كانت ضخمة جداً ومن ثم فلا يستطيع المرء ان يعارض قانون عندما يقول : « ان عمليات الترحيل بالقوة والمذابح وأعمال السخرة والرقيق كانت الوسائل الأساسية التي استخدمتها الرأسمالية لمضاعفة احتياطيتها من الذهب والماس وثروتها وبالتالي تعزيز قوتها » . ولم يكن قانون مبالغاً عندما وصف حالة الفقر المدقع التي تعانيها أجزاء كبيرة من العالم الثالث . ففي عام ١٩٥٩ كان معدل الدخل السنوي للفرد في مالي ٥٢ دولاراً فقط . ويلاحظ بصورة عامة انه كلما كان دخل الفرد أدنى كان معدل النمو الاقتصادي أشد انخفاضاً وكان اعتماد السكان أكثر على التراوح في أسعار المنتجات والمواد الخام في السوق العالمية . ومع ذلك فالناس غير متفقيين بشأن ما يعتبر « استغلالاً » .

ولعل هذا الاختلاف بشأن تفسير هذه المشكلة يمكن حله من خلال القصة الرمزية التالية التي صاغها برشتيان : يأتي الرجل

الأبيض إلى النهر العريض المزجر فيقفز فوق ظهر الرجل الزنجي
من السكان الأصليين ويصرخ فيه : « اسبح » ! فيسبح المسكين
قاطعاً به عرض النهر الى ان يصل به الى الضفة الأخرى وهو
منهوك القوى فيطلب أجرته ولكن الرجل الأبيض يصرخ به
مستاء ويقول : « لولاي لما قطعت النهر » !

٦- حول الثورة والعنف

وضع فانون كتاب « المذبذبون في الأرض » ونشره في غضون العام الاخير من حياته . ومن هذا الكتاب بالذات يستمد فانون في الدرجة الأولى مكانته ونفوذه . فهو ، خلافاً لكتبه السابقة ، كتاب منهجي يتناول موضوعات اجتماعية ويستعرض فيها مشكلات العالم الثالث بصورة عامة . وفانون يفعل ذلك بحوية لا تهدأ وبروح نبي يكتب بجرارة لاهية . ولكن الكتاب ليس مما يسهل تفسيره . ذلك ان فانون شغوف بالحكم والاقوال المأثورة إلى حد يدفعه إلى الاكثار منها على حساب الدقة في المعنى . وكثيراً ما يورد تعميمات شاملة دون ان يستند الى دليل ملموس . ان لوحات العالم الثالث الواسعة مليئة بضربات فرشاته المغموسة في دهان افريقي خالص . أما عن آسيا فلا يتحدث فانون بشيء .

ويكتب فانون تعليقاته بصيغة الحاضر ولكن احساسه بالتسلسل التاريخي يضيع في دوامة تتأرجح بين الماضي والحاضر مرة والحاضر والمستقبل مرة اخرى والمستقبل والماضي مرة ثالثة . وفي كل هذه الصيغ ينتهج اسلوب الجزم . ويلاحظ ان الحديث عن الثورات الاشتراكية التي لا نظير أو نموذج لها في التاريخ الماضي يقتزن بنفس صيغة الجزم التي يتحدث بها عن حالات الانحلال والانهيار في التاريخ الماضي والتي لا يصعب على المراقب ان يتتبع مصدرها او يتكهن به . وهو يرى في الثورة الجزائرية نموذجاً لافريقيا بكاملها ويضع مجموعة موحدة من المسائل لقارة تمتاز بسعة مساحتها وتفاوت شعوبها . وعلى الرغم من كل هذه العيوب فان « المذبذبون في الارض » يظل واحداً من أعظم الوثائق السياسية في عصرنا .

فالكتاب أولاً يخرق بشعاعه القوي الطبقة البورجوازية في الشعوب المستعمرة من سوداء ومن سمراء . ففي اعتقاده ان البورجوازية الغربية منتجة وطفيلية في آن معاً ، أما البورجوازية في الشعوب المستعمرة فهي طفيلية وحسب . وهي اذ تفتقر إلى الكفاءة والبراعة بوصفها تؤدي مهمة المقاتل والمتعهد تكتفي باداء مهمة الوكيل للشركات الغربية . ويتولى افراد هذه

الطبقة استغلال أشقائهم من أفراد الطبقة العاملة والفلاحين من السكان الأصليين وينأون بأنفسهم عنها ويكونون لهم الازدراء . وهم يرفلون بأثواب الرفاهية ويستثمرون أموالهم خارج حدود وطنهم . وهم ، فوق ذلك كله ، لا يقومون بأي دور بناء في زيادة الثروة القومية للبلاد بل يميلون إلى القيام بنشاطات في ميدان اقتصاد الخدمات مثل العمل كتجار مفرق وممارسة المهن كالمحاماة والوظائف الحكومية والعمل كسياسيين أو ضباط جيش .

ولا شك ان قانون كان مصيباً جداً في كل ذلك وان كانت أحكامه مستمدة إلى حد كبير من ملاحظاته في المجتمع الغاني ومجتمع ساحل العاج فقط . فقد اتضح من دراسة أجريت في نيجيريا عام ١٩٥٨ ان ٧٥ في المائة من النخبة في البلاد تعمل في المهن الراقية والسياسة ووظائف الحكومة . وفي عام ١٩٥٥ لم تكن نسبة الصناعيين في صفوف الجزائريين العرب لتزيد على ار. ٪ من مجموع السكان ولكن يمكن القول بأن الاستعمار هو المسؤول عن ذلك لأن الطبقة البورجوازية في صفوف السكان الأصليين خلقها الاستعمار نفسه وشرها بأسوأ أنواع ميمومه العنصرية .

وقال قانون ان البورجوازية المحلية كانت تشكل في مرحلة الصراع ضد الاستعمار العمود الفقري للأحزاب الوطنية . ومن ثم فان هذه الأحزاب التي بدأت في الأصل تقدمية ووطنية انتكست بسرعة لتتحول بسرعة للعمل على تشكيل ما يشبه وكالات لنقل السلطة والامتيازات من ايدي حفنة من البيض الى ايدي حفنة من الملونين . وعلى الرغم من عنف اللهجة التي تستخدمها هذه الاحزاب فانها تلتزم عادة الحذر وتبني وجهة النظر الاصلاحية وتمتنع عن استخدام العنف (لم يكن قانون من المعجبين بسياسة غاندي) . وقد يستغلون الثورة المسلحة ولكنهم لا يقدمون أبداً على اشعالها . ولعل احداً من الوطنيين المعروفين في كينيا لم يكن عضواً في حركة الماوماو أو دافع عنها بصراحة . واذ تجد هذه الاحزاب الوطنية نفسها معزولة عن القطاع الريفي من الشعب أو معادية له فانها تحرف معارضتها السياسية نحو الاشكال الرجعية والقبلية . واذن فلا بد من انتزاع حركة التحرر الوطني من قبضة الطبقة البورجوازية بأي ثمن كان .

ولا بد من التساؤل هنا عن طبيعة تركيب القوى الاجتماعية

التي من شأنها ان تضمن في هذه الحالة سلامة الثورة .

والجواب عن ذلك طبقةً للمفهوم الماركسي - الانغلي « نسبة الى انجلز) ان طبقة العمال الكادحين في المدن هي القوة الثورية الاجتماعية المهيأة لهذا الأمر ، في المجتمعات الرأسمالية . هذه هي الطبقة الأمية التي تقيم دكتاتوريتها الخاصة ، في مرحلة تمهيدية للشيوعية نفسها . ومع ان ماركس لم يناد بطريق واحد فقط للسير نحو ثورة تاريخية ولم يصر على انه لا بد ان تمر جميع المناطق في العالم عبر التجربة الرأسمالية واقترح في الواقع ان يحرب الفلاحون الروس نقل مجتمعهم من المرحلة الاقطاعية الى المرحلة الاجتماعية مباشرة إلا ان لينين ركز على ان تُشكل الطبقة العاملة الكادحة (البروليتاريا) المقدمة الاساسية لحلف ثوري ينتظم العمال وافقر الطبقات الفلاحية . ولئن كان مثل هذا التحالف ضرورياً في بلد كروسيا فانه حتمي في آسيا وافريقيا حيث لا تشكل طبقة العمال إلا نسبة ضئيلة جداً من السكان . والحقيقة انه لم يحصل قط أي ابتعاد نظري من التروتسكيين أو الستالينيين أو الماويين عن هذا المفهوم أي مفهوم المقدمة العمالية . فلم يحدث ان أنكر أي من هؤلاء احتمال قيام الفلاحين بشورة ناجحة . كذلك لم يحدث ان تخلى احد من هؤلاء من الوجهة النظرية عن تطابق

المصالح بين طبقة العمال الغربيين وشعوب المستعمرات . صحيح ان لينين لفت الانتباه الى « ارسقراطية عمالية » يمكن ان تزدهر نسبياً على حساب المنهوبات الاستعمارية الا انه لم يقصد إلا وصف ظاهرة تصدق في حالات قليلة وتطمسها الازمة العامة للاستعمار الرأسمالي .

واذن فان قانون لم يكن ماركسياً بالمعنى التقليدي . اذ لم يكن يعتقد ان طبقة العمال الغربية طبقة ثورية ولا هي متعاطفة مع الشعوب المستعمرة . ذلك ان قانون يعتقد ان العمال الغربيين هم في عداد المستفيدين من الاستعمار الجديد بل هم شركاء فيه . هنا كانت الحرب الجزائرية هي المصدر الحاسم الذي استمد قانون تجربته منه . وكثيراً ما أشار الى العمال والفلاحين الفرنسيين المتعطشين للدماء وهم يحاربون جبهة التحرير الجزائرية . ولاحظ قانون ترحيب الابطال الذي استقبلت به جماهير باريس في الرابع عشر من تموز ١٩٥٧ رجال المظلات التابعين لما سو . ثم ، ألم يهر الحزب الشيوعي الفرنسي موقفه بناء على عواطف العمال الفرنسيين ومشاعرهم ؟ والحقيقة ان قانون لم يكن وحده في التوصل الى هذه الاستنتاجات فقد وصف سنغور التضامن بين العمال الغربيين والشعوب المستعمرة بأنه وهم رومانتيكي لا اكثر.

كذلك فان سارتر سار في هذا الطريق ايضاً . فنحن نراه في اوائل الخمسينات يشترك في النظرية الماركسية التي 'تسوى بين الطبقة العاملة والطبقة الأمية . ولقد اعترف في عام ١٩٤٨ بأن العامل الأبيض يستفيد على الرغم منه ، من المستعمرات وان كانت فائدته ضئيلة . ولكن بحلول عام ١٩٦٠ اختفت من تحليلات سارتر القاسية الانتقاد عبارة « على الرغم منه » وكلمة « ضئيلة » عندما عمد الى تحليل عقائدية الطبقة العاملة الاوروبية .

ولقد تعرضت افكار فانون هذه الى انتقاد الماركسيين من جميع الاتجاهات . فقد وضع المعلق التروتسكي ميشيل بابلو اللوم على قيادات الاشتراكيين الاصلاحيين والاحزاب الشيوعية التحريفية فيما اصاب به العمال الاوروبيون من شلل . وهكذا يكون فانون قد اخطأ فجعل من تشويه سياسي مؤقت حقيقة اجتماعية دائمة ^(١) . ومن الناحية الاخرى ، يصر الناطقون بلسان دول الكتلة الشيوعية على انه لا مفر لجمهير الشعوب المستعمرة من الاستنجد بطبقة العمال في الدول الاشتراكية مادام العمال الغربيون مقيدون بسلطة الرأسمالية والدعاية البورجوازية .

وينتقل قانون الآن إلى مرحلة أخرى فهو ينبغي أن يكون للطبقة العاملة من السكان الأصليين في المستعمرات طابع ثوري فهي كالتبقة البورجوازية من أولئك السكان تتمتع في ظل الحكم الاجنبي بمزايا خاصة وباجور طيبة . وهي بصورة عامة موالية للأحزاب الوطنية . (واذن فإنه من تبسيط الأمور أن نفسر آراء قانون على أنها تصف ، على نحو مجازي ، جميع السكان المستعمرين - باستثناء الاغنياء منهم - بأنهم « الطبقة العاملة » في النظام السياسي الاقتصادي للعالم العصري وتصف جميع سكان الدول المستعمرة بأنهم « بورجوازيون ») . والواقع ان قانون تعرض بسبب هذه النظرية ، نظرية ان طبقة العمال من السكان الاصليين في المستعمرات ليست ذات طابع ثوري ، لانتقاد حاد وجهه اليه بنوع خاص الزعيم الشيوعي الفيتنامي بنغوين نغه الذي قال : « ان الفلاح لا يستطيع مطلقاً ، ان يكتسب من تلقاء ذاته ، وعياً ثورياً ، فالمناضل القادم من المدن هو الذي يتعين عليه ان يكتشف بصبر وجلد أشد العناصر الفلاحية الفقيرة ذكاء ويعلمها .. » (٢) . ويؤخذ مما قاله بنغوين نغه : ان تحليل قانون الانتقادي للطبقة العاملة من سكان المستعمرات الاصليين ينهار امام عجزه عن التفريق بين عناصر الطبقة العاملة الاصلية مثل

عمال أحواض السفن والمناجم وبين فئات البورجوازية الصغيرة مثل الكتبة وسائقي السيارات . ويبدو ان التضليل الذي وقع قانون صحيته تعود أسبابه إلى ان المارك الحاسمة التي دارت في الصين وفيتنام وكوبا والجزائر انما جرت في المناطق الريفية وكانت الكثرة الساحقة من رجال العصابات فيها مؤلفة من الفلاحين . ولكن ينبغي ان لا يفوتنا ان قيادة العناصر المدنية والمفكرين والعمال كانت مما لا غنى عنه على الاطلاق . فالثورة المؤلفة من الفلاحين وحدهم لا يمكن ان يرتجى لها مستقبل ناجح . ولقد وافق على ذلك بصورة عامة العالم السوفييتي بوتخين عندما قال : « ان على الطبقة العاملة الافريقية أن تحقق مهمة تاريخية محددة وأن تأخذ زمام المبادرة في ترسيخ نظام اشتراكي للانتاج وأن تتولى قيادة طبقة الفلاحين في اداء هذه المهمة (٣) » .

كل ذلك يقودنا الى صلب نظرية قانون التي تتلخص في ان الطبقة الثورية الاصلية في العالم الثالث هي طبقة الفلاحين الفقيرة ضحية عملية الافقار التام . فهذه الطبقة تتألف ، كما يرى قانون ، من رجال ونساء ذوي أحاسيس ومفاهيم اجتماعية ثورية . وهم فئة « متلاحمة تعيش حياة راكدة ولكنها تتمسك كل التمسك بقيمتها

الخلقية وتكريس نفسها للحفاظ على سلامة الشعب^(٤) .
والفلاحون ذوو روح كريمة ، وهم على استعداد لتقديم الحماية
للمناضلين من سكان المدن الذين تتعقبهم سلطات الأمن وعلى
استعداد كذلك لاستصلاح أراضيهم والحفاظ على كرامتهم من
خلال اللجوء إلى العنف . هؤلاء الرجال والنساء هم ، كما يرى
فانون ، « المعذبون في الأرض » الاصلاء .

ويرسم فانون اتجاه تقدم الثورة وفقاً للخطوط التالية :
تبدأ الثورة ، ثم تعد جذورها وبنيتها العسكرية في المناطق
الريفية ثم تتسلل إلى المدن من خلال الفلاحين المشردين عن أراضيهم
الاصلية والقاطنين في الأكواخ الشعبية من ضواحي المدن لأن
سكان هذه الاكواخ لا يكونون قد نجحوا بعد في العثور على
« عظمة يقضمونها في ظل النظام الاستعماري » . وهكذا تجد
الثورة رأس حربيها المدنية في هذه الطبقة التي هي أشبه
ما يكون « بمجموعة من الجرذان في وسعك أن تركلها بأقدامك
أو ان ترميها بالحجارة ولكن على الرغم من كل ما تفعله فانها
تظل تقضم وتحفر عند جذور الشجرة^(٥) » . هؤلاء الكسالى
الذين لا ينتفعون الى أية طبعمة والذين تجد في صفوفهم المومسات
وصغار المجرمين ، قد ندد بهم ماركس كل التسديد ولكنهم في

رأي قانون محترمون في رأي أنفسهم وفي رأي التاريخ .

على أن قانون لا يعزز رأيه هذا بالحجج والامثلة الواقعية ومن ثم فإن من الصعب ان تجد الامثلة المأمومة التي يمكن أن تستند اليها مثل هذه النظرية بأمان . ومع ذلك يمكن القول بأن سكان الاكواخ من حي القصبة الجزائري استطاعوا خلال الحرب الجزائرية أن ينقلوا معركة جبهة التحرير الجزائرية إلى المدينة . ولقد اعتبر زولبرغ هذه الفقرات من كتابات قانون كبرهان على ميله للغيبيات ، وتحدث عما اسماء « هذيان قانون الذي يقرنه برمبوا وجين جينه » فالمدينة تشتعل بالحرائق التي يتطهر بنيرانها الملعونون . لقد أصبحوا يتصفون بالجمال والطهارة ^(٦) . وتتهم ارندت قانون « بالمبالغات الخطابية » وهي تهمة يصعب دحضها . ففي حين انه من المحتمل جداً ان تصدر في خضم المعركة عن القوادين والمومسات والنصابين أعمال تتصف بالمثالية ونكران الذات الا انه من المستبعد جداً ان يحاول الصراع الى مواطنين منتجين في أمة المستقبل الاشتراكية . ومن ثم فليس مما يفيد ان نصف قوادي هافانا ومومساتها بانهم أشد المعجبين بكاسترو . ومما يحذر ذكره ان قانون عجز عن التمييز بين نواة سكان الاكواخ وبين المهاجرين اليها من سكان

القرى الذين يفدون الى المدينة ثم يعودون الى قراهم بين وقت وآخر . فهذه الفئة الاخيرة من سكان الاكواخ هي أقدر على النشاط الثوري الذي يصفه فانون ويرغب فيه . ويمكن مشاهدة ذلك كله في ثورات كينيا وغينيا البرتغالية .

ويبدو ان نينغه مصيب من زاوية واحدة : فقد عجز فانون عن التمييز بين مواقف الطبقات المدينية المختلفة . فأجر العامل الافريقي وان كان أعلى من دخل الفلاح فانه لا يعني ان مستوى معيشة ذلك العامل أعلى من مثيلها لدى الفلاح إلا حين يتخلص من اقربائه الذين يعيلهم . ثم ان العامل ليس لديه خيار في الانضمام الى الحزب الوطني ولكنه اذ يفعل ذلك يصبح عادة أشد تطرفا من رجل الاعمال او الموظف او سائق سيارة الاجرة . وعلى الرغم من ذلك فان ثورته تبقى محدودة .

اما رأي نينغه بأن « المناضلين والمفكرين والعمال المدينيين » يشكلون قيادة لا غنى عنها للعصابات الفلاحية في جيش ماو وجيش جيباب وعصابات كاسترو وجيش التحرير الجزائري فيمكن التعليق عليه بأن أهمية مفكري الطبقة الوسطى للحركات الثورية تفوق بكثير أهمية العمال المدينيين . على انه لا بد ان

يؤخذ عنصر الكثرة العددية بعين الاعتبار ايضاً . ففي تنجانيقا كان ٢,٥ في المائة من السكان فقط يعيشون في المدن ، وفي ساحل الذهب كان ٤,٥ في المائة فقط من كسبة الاجور (في القطاعين الصناعي والزراعي معاً) . وفي دراسة اجريت في الجزائر التي تعتبر بلداً متقدماً نسبياً بالمقاييس الافريقية ، كشفت تلك الدراسة النقاب على ان ٧٢,٢ في المائة من السكان العرب كانوا في عام ١٩٥٤ يعملون في القطاع الزراعي ولم يكن العمال المهرة يشكلون أكثر من ٤,٦ في المائة ^(٧) . ويلاحظ ان سكان المدن في افريقيا متقسمون على انفسهم من الناحية العرقية وبالتالي من الناحية السياسية ايضاً . ما الاتحادات فكانت ضعيفة . وفي عصر فانون كان عدد افراد قطاع العمال المهاجرين الذين يعملون بدوام جزئي يفوق بكثير عدد افراد العمال الذين يعملون بدوام كامل . وفي الكونغو كانت أقل المناطق تطرفاً في عام ١٩٦٠ هي أشدها تصنعاً ونعني بها مقاطعة كاتنغا . والواقع ان أشد المناطق ثورية كانت أشدها فقراً وهي تلك المناطق التي يعتبر فيها كسبة الأجور من العناصر المحظوظة المستفيدة من التقدم المادي في البلاد . وعبثاً نحاول ان نجد في كتابات جيفارا ما يدل على حتمية الحاجة الى العمال المدينين لنجاح العصابات . والنتيجة الحتمية

هي انه سواء كان ما ذكره قانون من ان طبقة الفلاحين الافريقية هي طبقة ثورية صحيحاً أو غير صحيح فليست في افريقيا المعاصرة طبقة اخرى غيرها .

ومع ان قانون يصنف الطبقات الاجتماعية طبقاً للمقاييس الماركسية (وفقاً لعلاقاتها بوسائل الانتاج) الا انه يقيس تصرفها السياسي وفقاً للعوامل التالية : (١) مستوى الحيوية (٢) حجمها أي عدد افرادها (٣) مدى تلاحمها بالنظام الاستعماري . ويعتبر تركيزه على العاملين الاول والثاني افتراقاً منهجياً عن الماركسية . وهنا يبدو نفوذ افكار سارتر الواردة في كتابه « نقد الفكر الديالكتيكي » قوياً عليه . ويبدو ذلك خاصة في التركيز على « الحاجة » و « الندرة » بوصفهما المسببات الرئيسية للعنف الاجتماعي من الوجهتين التاريخية والاقتصادية . ان ديالكتيك التطبيق العملي يسبق تشكيل الطبقات كما ان توزيع العمل يبقى عنصراً مهماً في مجتمع الطبقات ويحتمل ان يستمر في التأثير حتى في ظل الاشتراكية . وينتج من ذلك ان افكار طبقة الفلاحين في المستعمرات كفيلا بأن يولد تطبيقاً عملياً متطرفاً في حين ان الازدهار النسبي للطبقة العاملة من شأنه ان يولد الانتهازية

الاصلاحية .

ان التزام قانون بالاشتراكية واضح جلي في صفحات كتابه «المعذبون في الارض» فقد لاحظ بحماسة بالغة الموقف الذي تبناه مؤتمر كوتونو الافريقي عام ١٩٥٨ تأييداً للاشتركية والانتاج الجماعي . وكان مقتنعاً بأن الوسيلة الوحيدة لكسر سلطة المؤسسات الاحتكارية وتحويل الاستغلال من استغلال اسمي الى فعلي وبالتالي ضرب الاستعمار الجديد إنما يكمن في تأميم قطاعي الانتاج والتجارة . ولكنه كان يرى ان التأميم بحد ذاته خطوة غير كافية ولا بد ان تعقبها خطوات جذرية لانتهاج الادارة اللامركزية والمشاركة الجماهيرية الديمقراطية في مشروعات تعاونية . وهكذا فعلى المستوى الوطني كانت مفاتيح التقدم تكمن في التنسيق بين التخطيط والتكشف والتعليم .

وكان قانون ، بدافع من الاسباب الاجتماعية التي سبق ذكرها، يصر على ان حركة التحرر الوطني والثورة الاجتماعية ينبغي ان تتلاحما في انطلاقة موحدة . فقد كان يؤمن بأنه «ينبغي ان لا يسمح للبورجوازية بأن تجد الظروف اللازمة لوجودها ونموها في الاقطار المختلفة» . ويقول صمويل رودى

بهذا الصدد ان قانون يتورط هنا في تشويش تمكن زعماء الكومنترن مثل لينين وروى من تجنبه . فقد بنى زعماء الكومنترن استراتيجيتهم على حملة ذات مرحلتين : الاولى هي مرحلة الثورة الوطنية البورجوازية التي تتحالف خلالها احزاب الطبقة العاملة مع البورجوازية الوطنية . ثم تأتي المرحلة الثانية التي تنشب فيها الثورة الاجتماعية وذلك بعد ان يكون الاستقلال قد تحقق ونشأت محاور استقطاب طبقية جديدة ضمن الشعب . ومع ان رودى مصيب في التفريق بين المرحلتين إلا ان الدروس التي يقدمها تاريخ القرن العشرين تؤيد وجهة النظر التي تبناها قانون . فمع ان الثورة الروسية تمت على مرحلتين (آذار وتشرين الثاني ١٩١٧) فقد وجد البولشفيك ان من الضروري ان يضربوا ضربتهم قبل ان يتمكن البورجوازيون من توحيد قواهم وساعدهم على ذلك استمرار روسيا في حربها اليائسة ضد المانيا . اما الثورتان الشيوعيتان الناجحتان في الصين والهند الصينية فقد كانت كل منهما حرباً تحريرية واشتراكية في آن معاً . ولم يسمح لشيانغ كاي شيك قط بأقامة دولة بورجوازية في الصين .

وكانت الثورة الاشتراكية الاصلية الوحيدة في اوروبا وهي ثورة يوغوسلافيا متلاحمة كل التلاحم مع الصراع في سبيل

الاستقلال . ومن ثم فان المراقب يبحث عبثاً عن مثال لثورة ناجحة ذات استراتيجية مزدوجة المراحل . أما الثورات الموسمية المتتالية في العالم العربي فهي تنبع من عوامل مختلفة كل الاختلاف . والحقيقة انه اينما رسخت البورجوازية الوطنية اقدامها في بلد ما من افريقيا أو آسيا استطاعت ان تحتفظ بقوتها .

ولهذا كله كان قانون يعلق اهمية كبرى على القيادة العقائدية السلمية خلال الصراع ضد الاستعمار . وهو يقول في ذلك : « من ناحيتي ، كلما تغلغت في الاوساط الثقافية والسياسية (من افريقيا) ازددت يقيناً بان الخطر الكبير الذي يهدد افريقيا انما هو فقدان العقائدية . فهمة التقدم بالشعب نحو النضوج تصبح اسهل وايسر اذا اقترنت بقيادة تتمتع بالقدرة على احكام التنظيم وتحلت بمستوى فكري رفيع ^(٨) » . والمشكلة هنا هي ان قانون لم يحاول ان يعالج بالتفصيل مشكلات بناء مجتمع واقتصاد اشتراكيين . فهو مثل ماركس كان أشد اهتماماً ببذر بذور الحقد في رحم المجتمع القديم الفاسد منه بالبحث عن وسائل وضع الوليد والعناية بحياته .

ان معظم القادة « الاشتراكيين » في افريقيا يصرون على ان

المجتمع الافريقي هو في الدرجة مجتمع لا طبقي او خال على الأقل من الصراع الطبقي . ولقد عبر عن وجهة النظر هذه كل من سنغور وتوري ونكروما وموديبو كيتا ونيريري . وفي السنغال وتنزانيا يبدو ان الاشتراكية قد عرفت رسمياً على انها موقف فكري معين . فسنگور يتحدث عن تلاحم بين القيم الخلقية والدينية الافريقية من جهة و « التقاليد الثورية » من جهة اخرى .

وفي غانا وغينيا يدور الحديث حول الاشتراكية على نحو مبهم ففكرة توري عن الاشتراكية هي انعكاس لنظام يمثل رغبات الشعب كله اكثر مما يمثل رغبة طبقة واحدة . وفي حين ان نكروما سمح بتقديم بعض الدروس الماركسية في مركز التدريب العقائدي في وينبا فان صحيفة « الشعلة » الصادرة في اكرا سخرت من النظرة الماركسية التي تنطوي على الايمان بوجود مجتمع لا طبقي في المجتمع الافريقي الذي سبق عصر الاستعمار . ولكن نكروما اعلن بصراحة في شهر كانون الثاني ١٩٦٣ انه لم يكن يوجد في مجتمع السكان الافريقيين الاصليين صراع بين الطبقات . وجاءت دراسة نكروما التي اسماها « تحرك الضمير » والتي نشرها عام ١٩٦٤ لتضم صوته الى صوت اولئك الذين

يعتقدون ان الكوميونية المحلية القديمة هي الاصل الطبيعي للاشتراكية العصرية التي تطورت اصلاً من خلال عملية اصلاح دائم . وفي غضون ذلك قال توم مبيوياً - كينيا - « عندما اتحدث عن الاشتراكية الافريقية اشير الى قوانين السلوك السائدة في المجتمعات الافريقية والتي اسبغت ، على طول مئات الاعوام ، الكرامة على شعبنا .. »

اما من حيث السياسة العملية فقد اوقفت في غينيا عام ١٩٦٢ اجراءات التأمين القديمة عندما صدر في البلاد تشريع جديد يضمن للمستثمرين الاجانب عدم مصادرة اموالهم . وفي شهر نيسان ١٩٦٢ صدر في غانا قانون مماثل بعد ان خاطب فكروما مجموعة من رجال الاعمال قائلاً « نحن من جانبنا نرحب بكل مستثمر شريف يريد الحصول على ارباح عادلة ولكننا لا لنعتمد التساهل مع أي انسان يحاول توجيه الطريق السياسي الذي ينبغي ان نتبعه » . ولكن هذا الكلام هو في الواقع لا معنى له ، ذلك ان مجرد اعطاء ضمان ضد المصادرة ينطوي على تنازل عن السيادة السياسية .

ولما كان قانون لم يعلق مباشرة على نظرية « الكوميونية

اللاطبقة ، للاشتركية الافريقية فاننا مضطرون الى الاعتماد على الاستدلال لا على النص وهنا يتراءى لنا ان قانون يعزو تشكيل الطبقات في افريقيا بالدرجة الاولى الى الاستعمار نفسه . ونتيجة لذلك نجد صراعاً طبقياً مباشراً بين الفلاحين والبورجوازيين المدنيين ونزاعاً غير مباشر بين مصالح طبقة الفلاحين وطبقة العمال . وفي الوقت نفسه نجد ان النزاع بين الاحزاب الوطنية المدنية من جهة ورؤساء القبائل من جهة اخرى هو ذو طابع اقرب الى السياسة منه الى الاقتصاد (ولكن هذا يصدق ايضاً على الصراع الذي كان ناشئاً خلال القرن الثامن عشر بين البورجوازية الفرنسية وطبقة ملاك الاراضي الفرنسيين) . ولما كانت للبورجوازية الوطنية والطبقة العاملة جذور ضعيفة نسبياً في البنيان الانتاجي ، فقد اصبح من المحتم ان تكون طبقة الفلاحين ، اذا كانت ثورية وموحدة ، قادرة على القضاء على الطبقتين السابقتين وكذلك على رؤساء القبائل دون حاجة الى نزاع طبقي طويل الأمد . وكما كان قانون يريد من النساء الجزائريات ان ينزعن الحجاب عن وجوههن بأنفسهن بدلاً من ان يقوم بذلك الفرنسيون كذلك كان يريد من طبقة الفلاحين الافريقية ان تسوي حساباتها بنفسها مع رؤساء قبائلها بدلاً

من السماح للحزب الوطنية بان تفعل ذلك كما حدث في
غانا مثلاً .

ولكن هذا يعني التحدث ، كما فعل قانون نفسه ، بفهم
اجتماعية غربية عامة . وأما البنى الفعلية للمجتمع الافريقي
والبنى الفعلية للمؤسسات السياسية الافريقية قبل عهد الاستعمار
فيختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف . وليس من شك في ان
هذه الاختلافات قد لعبت دوراً هاماً في تعقيد التطور السياسي
الافريقي خلال الستينات . فقد تكون قبيلة افريقية او جماعة ما
ذات نزعة فردية من حيث الاقتاج ولكنها تعاونية في مجال الاستهلاك ،
وقد تفتجع اسلوب تبادل المساعدات ولكن ضمن حدود ضيقة .
وفي بعض المناطق لم يكن هناك ملاكون كبار في حين كان
ذلك سائداً في بعض المناطق الاخرى مثل اثيوبيا ويوغندا
ونيجيريا الشمالية وشمال الكاميرون . واما في مناطق الحوسا
فان المجتمع يتألف من طبقات محددة ويصدق ذلك على قبائل
نغواتو وبمبا وبانيانكول وكيد حيث كان التنظيم السياسي
محصوراً بهيئة طبقية معينة سواء كان ذلك في اثناء الاستعمار
او قبله . غير ان قبائل لوغولي وتالفسي ونوير من الناحية الأخرى

لم تكن فيها انقسامات طبقية حادة ولا حكومة مركزية .

ولم تكن الممارسة الاستعمارية والذهنية الاستعمارية غائبتين كذلك عن المجتمع الافريقي . ففي المناطق التي تهيمن عليها قبيلة كيد مثلاً تعتبر أدنى الطبقات هي طبقة السكان الاصليين الذين تعتبرهم القبيلة بدائيين وتكن لهم الازدراء وهم بدون ثقافة على الاطلاق . ولكن فانون لا يبحث اياً من هذه الفروق . بل يشير اليها احياناً بصورة عابرة غير مباشرة كما يفعل حين يشكو من انفجار الروح « العنصرية » في الدول الحديثة الاستقلال . وأما فكرته عن « افريقيا » وتشكيلاتها الاجتماعية فتبقى تخطيطية . فلديه صورة موحدة عن القارة وحل موحد لمشكلاتها . وهذا الحل مؤلف من عقيدة سليمة ورغبة شرسة لتجنب الحلول الوسط .

ان انفجارات العنصرية يمكن وصفها على نحو انطباق بأنها انفجارات « قبلية » الأمر الذي يثير مشكلة « الأمة » الافريقية الجديدة من اساسها . ويصر فانون ، وهو يصف الروح الزنجية او العروبة بأنها تفكير قديم عفا عليه الزمان ، على ان تكون الأمة هي وحدة الانبعاث الخلقي والاجتماعي . « ان الضرورة

الاولى هي اعادة بناء الأمة حتى تبث الحياة في الثقافة الوطنية بالمعنى البيولوجي الدقيق لهذه العبارة ^(٩) . وهو يكتب عن اخلاص الفلاحين للأمة وعجز البورجوازية الوطنية عن انتهاج سياسة قومية اصيلة . وهو يعرف الأمة ، في وجه الخصائص القبلية والتعصب الغامض للزنجية أو العربية ، بأنها الوحدة العضوية للولاء والتقدم .

ويلاحظ فانون انه حتى في اوروبا فان الدول والشعوب ليست دائماً متطابقة . فالمانيا تتألف اليوم من دولتين وشعب واحد كما تتألف تشيكوسلوفاكيا من شعبين ودولة واحدة . أما دول افريقيا الحديثة فهي في الدرجة الاولى من صنع الاستعمار الاوربي كما ان الحدود التي تفصل بينها انما خططت بحكم التسويات التي تمت بين الدول الاستعمارية المختلفة أكثر مما خططت بحكم الاعتبارات العنصرية والعرقية للسكان . فالكاميرون مثلاً مقسمة بناء على الفوارق اللغوية (بريطانية وفرنسية) وكذلك الفوارق الدينية . أما نيجيريا فقد خلقت باكثرية من قبائل الحوسا المسلمين في الشمال واكثرية من قبائل اليروبا في الغرب واكثرية من قبائل الايبو في الشرق . وان الحرب الحالية في بيافرا لتحدث عن نفسها بنفسها . أما « الأمة » التي اراد لومومبا ان يصون وحدتها في

الكونغو فهي من صنع الاوروبيين في حين ان غانا ومالي هما
اسمان رمزيان يشيران الى امبراطوريتين كانتا قائمتين خلال القرون
الوسطى . واذن فان غانا المعاصرة ليست كياناً قومياً طبيعياً .
ففي حين ان حدود غانا مع توغولاند تمتد من الشمال الى الجنوب
فان الحدود الثقافية بين المنطقتين تمتد من الشرق إلى الغرب الأمر
الذي يجعل قبيلة « او » الكبيرة موزعة عبر المناطق الجنوبية من
البلدين . وحق في بقعة صغيرة نسبياً مثل غانا تستخدم لغات
عديدة . وكثيراً ما يتعذر التخاطب الا باللغة الانكليزية بين
فئتين افريقيتين في غانا لا يفصل بينهما أكثر من ٥٠ ميلاً
فقط .

ومما يثير الدهشة حقاً ان نجد قانون الذي اراد ان يحطم
الثقافة الاوروبية في افريقيا يريد من ناحية اخرى ان يحول
بصورة اعتباطية البناءات الاوروبية في افريقيا الى وحدات
طبيعية تمثل التقدم الافريقي . فمن الواضح ان هذه الدول المنفصلة
قائمة بالفعل ، وان احلام اقامة اتحاد افريقي فدرالي قد انحسرت
مراجعة ومن ثم فمن الصعب ان نجد تحسناً محلياً في مفهوم
قانون بشأن « اعادة بناء الامة ... بالمعنى البيولوجي الدقيق
للمعبرة » .

ان عملية قانون لازالة الاستعمار ليست قومية من حيث الشكل فقط بل هي عنيفة من حيث الموضوع ايضاً. فالاستعمار، في نظره، مرادف للعنف السياسي والعسكري والثقافي والنفساني ومن ثم فلا يمكن ان يقضي عليه الا عنف مماثل ومعاكس في جميع المجالات . وهنالك بحث معقد عما قاله ماركس عن العنف وكيف عزاه الى تحطم الانظمة المختلفة للدولة وما اذا كان تفسير لينين لماركس بهذا الصدد هو ادق مثلاً من تفسير كاوتسكي . فلقد قال ماركس ان العنف هو القابلية التي يضع التاريخ مواليدته على يديها، ولكنه حدد هذا التعميم في الستينات والسبعينات من القرن الماضي فيما يتعلق بانظمة الحكم البورجوازية الديمقراطية التي كانت سائدة حينذاك في كل من بريطانيا وهولندا والولايات المتحدة فقال انه في مثل الظروف التي كانت سائدة في الاقطار السابقة الذكر، يحتمل ان تتمكن طبقة العمال من الاستيلاء على الحكم بدون اللجوء الى العنف . وفي التسعينات ادخل انغلز في هذا الاطار كلا من فرنسا والمانيا ايضاً . أما فانون فلم يشر في الدراسات التي وضعها عن العنف الجماعي الى الحجج المختلفة المتوفرة في الحركة الماركسية، بل كانت الجزائر وافريقيا هما المصدرين اللذين حددوا نظرتهم الى العنف مستمداً هذه النظرة

من مشاهداته المباشرة في تلك المناطق . وكانت هذه النظرة تتخذ شكل تحويل قيام الفرد بتحقيق ذاته على نحو انساني ولكن راديكالي (وهي نظرة تعني في الواقع استخدام العنف غير العنيف) الى نظرية منهجية بشأن ضرورة اللجوء الى العنف الثوري الجماعي في العالم الثالث . من ذلك مثلا ان موريس ميرلوبونتي الذي استمع فانون الى محاضراته في جامعة ليون قال منذ عام ١٩٤٧ ان جذور العنف موجودة في الديالكتيك التاريخي وانه لا بد لهذا العنف من ان يتناول جميع الفئات المماثلة للثورة . ولما كان العنف جزءاً لا يتجزأ من المجتمع السابق لعهد المجتمع الاشتراكي ، فان المشكلة الوحيدة هنا ، طبقاً لمفاهيم ميرلوبونتي ، هي تحديد الشكل الذي يتخذه العنف الاجتماعي وهو يتجه نحو قمع جميع اشكال العنف . أما سارتر فقد طور هذا الخط من المنطق في روايته « الشيطان والسيد الطيب » (١٩٥١) وفي مقالاته الطويلة « الشيوعيون والسلام » (١٩٥٣) وفي مناقشاته لكامو (١٩٥٢) وفي كتابه الاخير « نقد المنطق الديالكتيكي » ولم يكن لكاتب من النفوذ لدى فانون ما كان لسارتر .

يؤمن فانون بان انتصار القوى الثورية في مجابهة مع القوى

الاستعمارية هو أمر حتمي . وبالتالي فقد اعتبر رأي انغلابان انتصار العنف يعتمد على انتاج الاسلحة وبالتالي على الطاقة الاقتصادية بصورة عامة رأياً « طفولياً » . ذلك ان قانون يعتقد ان نجاح الثورة المسلحة انما يعتمد على عوامل ثلاثة : (أ) حماسة السكان الاصليين (ب) ان المستعمرات هي الان اسواق تجارية ومن ثم فان نشوب حروب طويلة لا يتفق مع مصالح المؤسسات الاحتكارية (ج) ان الحرب الباردة تزيد من خوف الغرب من ان يتسلل الشيوعيون من خلال الاضطرابات الناشئة في المستعمرات . وليست هنالك دولة استعمارية قادرة على تحمل نفقات قوى الاحتلال الكبيرة في اثناء الفترة الطويلة اللازمة لاختضاع شعب ما . غير انه يمكن الرد على هذا الرأي بانه بحلول عام ١٩٦٤ كانت العصابات الانغولية تجابه ربع مليون نسمة من البرتغاليين المقيمين في المستعمرة والى جانبهم جيش يبلغ تعدادده ، نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل . واليوم وبعد نحو عشرة اعوام من اندلاع نيران الثورة يبدو ان القبضة البرتغالية لا تزال قوية . وفي كينيا امكن قمع الثورة قبل منح الاستقلال باعوام عديدة . واذن فان الشيء الكثير يعتمد على البنيان السياسي للدولة المستعمرة وعلى تقديراتها المحلية والعالمية . فمجتمع المستوطنين

حين يكون كبيراً ، كما هي الحال في روديسيا ، ينفصل عن الدولة الام « الضعيفة » ويقيم نظامه الشرس الخاص . وتعتبر افريقيا الجنوبية مثالا تاريخياً لمثل هذه الحالة .

على ان قانون لا يعتبر في عداد المنظرين الكبار في حرب العصابات فهو يقتصر على الاصرار على ان الاضطرابات العفوية ينبغي ان تتحول بسرعة الى تنظيم واستراتيجية منهجين . ولا بد كذلك من ان تتلاحم في النهاية العصابات المتفرقة ضمن جيش وطني تسيره استراتيجية مركزية . ولم تكن حرب العصابات اثناء حياة قانون قد تطورت تطوراً ناجحاً في المناطق الواقعة جنوب الصحراء الجزائرية . كذلك لم تكن اضطرابات الماوماو في كينيا والحرب الريفية في الكونغو قد تقدمت الى ما هو اعلى من مستوى الاضطرابات القبلية المناوئة للاستعمار . ولقد كانت مذكرات قانون عن الرحلة التي قام بها عام ١٩٦٠ من مالي إلى الصحراء الجزائرية الكبرى مقتضبة ولكنها دقيقة . وافترض قانون انه من الضروري ان تتألف كل وحدة فدائية (كوماندو) ، في أول الأمر ، من عدد من الاعضاء يتراوح بين ٢٠ رجلاً و ٢٥ على ان يرتفع عددهما شيئاً فشيئاً ليصل إلى ما يتراوح بين ١٠٠ رجل و ١٥٠ كلما ازداد عدد المتطوعين . وقال

فانون ان الغاية الاولى من تشكيل هذه الوحدات ليست ضرب العدو بل توعية السكان وإيقاظهم من سباتهم وإقناعهم ببطلان اسطورة ان العدو قوي واظهار ان جيش التحرير قوي. وعلى كل وحدة فدائية ان تنتظم في صفوفها ثلاثة اعضاء أو أربعة من كل قبيلة تاركة خلفها في اثناء رحلتها بعض اعضاءها الاصليين في المراكز التي تمر بها . فمن شأن ذلك ان يؤمن خط مواصلات الوحدة وتوفير عدد الادلاء الذين يعرفون المناطق المحلية من الوجهتين الجغرافية والسياسية .

ويرى ماو ان الحزب الشيوعي هو الذي ينبغي ان يتولى قيادة حملات العصابات بينما يرى فانون وجيفارا ان الحزب الثوري ينبثق من حملات العصابات. والواقع ان جيفارا ودبري يعتبران الاحزاب الشيوعية القديمة في امريكا اللاتينية احزاباً تدعو الى الحل الوسط ومن ثم فهي غير واردة في حروب التحرير الجديدة، أما في افريقيا السوداء فلا يكاد يكون لها وجود . وينظر فانون الى الاحزاب الوطنية التي تتخذ قواعدهما في المدن بنفس المنظار السابق . ولكنه يختلف عن جيفارا ودبري ، ولا سيما دبري ، اللذين يعتبران ان نواة العصابات الصلبة تتكون اول الامر بمعزل عن الفلاحين

الذين لا ينضوون تحت لواء الصراع الا بعد حين وشيئاً فشيئاً ، وذلك بفضل الدعاية والاعمال العسكرية الناجحة التي هي في الحقيقة احسن وسائل الدعاية . ويوافق قانون على ان التوعية الفكرية للفلاحين امر جوهري ، ولكنه يبدو «ماركسياً» من حيث انه ينسب الدافع الثوري الاصلي الى الطبقة الاجتماعية نفسها . وهنا نجد ان جيفارا وديري ، بوصفها « استراتيجيين » صريحين ، يعلقان اهمية اكبر على نواة القيادتين العسكرية والسياسية وعلى الانضباط الثوري ، في حين ان نظرة قانون تتصف بمزيد من الرومانتيكية ومن ثم نجد ان الوضع الراهن في غينيا البرتغالية حيث يتولى كابرال رئاسة كلتا القيادتين السياسية والعسكرية لحركة التحرر ، هو اقرب الى الانسجام مع نموذج جيفارا - ديري .

وتجربنا كلمة « رومانتيكية » هذه الى واحد من أشد جوانب فلسفة قانون مدعاة للنقاش ، ذلك هو ايمانه بضرورة تبني الشعوب المستعمرة لاسلوب العنف الجماعي . فقد كتب في كتابه « بشرة سوداء واقنعة بيضاء » يقول :

« هنالك منطقة من اللاجود ، منطقة غريبة عميقة وجدباء ،

منحدر عار عراء تاماً يمكن ان يولد فيه اضطراب اصيل . ولكن في معظم الحالات لا تكون لدى الرجل الاسود قدرة على تحويل هذا المنحدر السحيق الى جحيم حقيقي . . ففي حالته الخاصة كان العنصر الكابح المثبط للعزيمة هو كما قال هو نفسه : « انني لا اثق بالحماسة المبالغ فيها . ففي كل مرة انفجرت فيها مثل هذه في مكان ما ، جلبت معها للناس النار والمجاعة والشقاء ... والاحتقار » (١٠) . ولكنه رأى الآن المجاعة والشقاء في ضوء جديد « فالعنف وحده العنف الذي يلتزم به الشعب ، العنف الذي ينظمه ويبيته قادة القائمين به ، هو الذي يجعل في امكان الجماهير ان تفهم الحقائق الاجتماعية ويعطيها مفتاح تلك الحقائق » (١١) . ان العنف على نطاق الشعب هو الذي يصهر القبلية والاقليمية ويشد ابناء المجتمع بعضهم الى بعض ملزماً كل فرد بواجبه نحو نفسه ونحو الآخرين . ولقد يكون مما يفري ان نستعيز هنا عن كلمة « عنف » بكلمة « صراع » ولكننا نكون حينذاك قد ارتكبنا خطأ كبيراً . ذلك ان الشعب الهندي مثلاً كان يخوض بقيادة غاندي صراعاً جماعياً ضد الاستعمار ولكن قانون يرفض تكتيك غاندي ويعتبر صراعه ضد الاستعمار

صراعاً غير أصيل لأنه لا يقترن بالعنف . ولقد كرر سارتر آراء
فانون في المقدمة التي وضعها لكتابه « المعذبون في الأرض » فقال
« ان المواطن من السكان الأصليين لا يشفي نفسه من العصاب
الاستعماري إلا بطرد المستوطن بقوة السلاح .. فعندما ينفجر
غضبه بعيد اكتشاف براءته ويصبح قادراً على معرفة نفسه من
حيث انه هو الذي يخلق نفسه ... ان اطلاق النار على اوروبي
هو بمثابة قتل عصفورين بحجر واحد فهو يعني ان يُقتل في آن
معاً رجل ظالم والرجل الخاضع لظلمه ^(١٢) » . فهل يقصد سارتر
بذلك تشويه أفكار فانون بوضع ديالكتيك اجتماعي من حيث
الجوهر على مستوى ديالكتيك وجودي وفردى ؟ من الواضح
ان فانون لم يقصد ذلك لانه هو نفسه ذو آراء جذرية من هذه
الزاوية : « فعلى مستوى الافراد يعتبر العنف عاملاً مطهراً .
فهو يحرر المواطن من السكان الاصليين مما يعانيه من مركب النقص
والياس والكسل ^(١٣) » غير انه من الواضح ايضاً ان اشكال
الاستغلال ليست متماثلة وان المواطن المستعمر هو أشد انسحاقاً
من العامل الاوروبي ، كما ان خضوعه ليس من الزاويتين الاقتصادية
والاجتماعية وحسب بل من الزاوية العنصرية ايضاً .

وكان سارتر نفسه ينتهج مستقلاً ، خطأ موازياً لحظ فانون .

فقد كتب قبل ذلك بثمانية أعوام يقول : « ان الطبقات ، بصورة عامة ، لا توجد وحدها بل هي تُصنع » . و اضاف سارتر يقول ان الاضراب السياسي المقترون بالعنف هو بالنسبة للعامل الكادح طريقة يصبح بها هذا الكادح رجلاً . وفي وسعنا ان نصف هذا المبدأ بأنه علاج وجودي ضمن المفهوم الماركسي للطبقات . ان قانون يرى ان العالم المستعمر ليس عالمًا كثيبًا ثقیل الوطأة وحسب بل هو كذلك عالم مغلق ساكن ومشلول ، ومن ثم لا بد من تفجيرِهِ . أما ماركس وانجاز فلم ينظرا إلى العنف الاجتماعي بهذا المنظار . فعنف العامل ذرائعي وليس وجودياً . وهو عمل بناء وليس ضرورة نفسانية . وكان سيزير قد تحدث عن قانون فقال : « ان عنقه ، بدون مفارقة ، هو عنف رجل غير عنيف ، واقصد بذلك انه عنف العدالة وتطهير النفس والعناد ^(١٤) » . ولا شك ان عبارة « بدون مفارقة » هنا هي مما لا يسهل ابتلاعه وإلا لأمكن كذلك تبرير عقائد العنف لدى الفاشست الجدد من الايطاليين بنفس المنطق . وكان قانون قد كتب الى جومنير يقول « ان العمل يكون تحريضاً وشيئاً غير مترابط إذا لم يعد بناء الوعي لدى الفرد ^(١٥) » . ولكن هذا ليس سوى لغو لا معنى له .

و كثيراً ما قورنت آراء قانون بشأن العنف بآراء جورج سوريل في كتابه « اضواء على العنف » (١٩٠٨) فيما قاله سوريل :
« ان الاشتراكية مدينة للعنف فيما تنطوي عليه من قِيم خلقية رفيعة تكفل انقاذ العصر الحديث »^(١٦) . ولاحظت هنا ارندت ، وهي تلفت الانظار الى ما يدين به سوريل لهري بيرغسون ، ان قانون « قد تأثر تأثراً عميقاً بمعادلة سوريل عن العنف ، الحياة والابداعية .. »^(١٧) . ويقول زولبرغ ان قانون يؤمن بأن الطبقة الكادحة الاوروبية تحتاج الى اسطورة . على ان العلاقة بين أفكار قانون وافكار سوريل مشكوك فيها جداً . ففانون لم يشر اليه قط . والواقع ان سوريل الذي غازل الفاشية فيما بعد اصبح من الاسماء ذات السمعة السيئة عند اليساريين . ففي المقدمة التي وضعها سارتر لكتاب قانون كتب يقول « إذا وضعت جانبا صرخات سوريل الفاشية وجدت ان قانون هو ، منذ عهد انجلز ، أول من وضع العملية التاريخية تحت ضوء الحاضر الجلي »^(١٨) . ومهما يكن من أمر فان هذه العبارة ليست بحد ذاتها مقنعة فهي لا تزيد على بيان ان قانون لم يعترف بأنه مدين لسوريل . والحقيقة هي ان نفس التأكيد الصادر عن سارتر بشأن اضراب الطبقة الكادحة والاضراب السياسي المشار اليه أعلاه

يعبر ، إلى حد كبير ، عن أفكار سوريل .

ولنا أن نترك الآن مشكلة الاقتباس أو الاستيحاء لننتقل إلى الجوهر . فهل تعتبر عقيدة قانون عن العنف بصورة أساسية نفس عقيدة سوريل ؟ فإذا كان ذلك صحيحاً ، لا بد لنا حينذاك من أن نتذكر أن نظرية سوريل عن العنف قد نقلته خلال بضعة أعوام من الإعجاب ببلينين إلى الإعجاب بموسوليني . إن فكرة « الأسطورة » فكرة حاسمة في نظر سوريل الذي كتب يقول : « في وسع المرء أن يحكم على الأساطير كوسيلة للعمل في الوقت الحاضر » ولكن هذا المفهوم « للأسطورة » لم يكن قط مقبولا لدى قانون . لقد كان سوريل متشائماً ولا يؤمن بالعقلانية . ولم يكن يثق بنظريات التقدم والنجاح الحتمي لثورة الطبقة الكادحة . واذن فإن سوريل يعتقد أن الطبقة الكادحة تستطيع أن تؤكد نفسها على نحو عنيف ضمن المجتمع الظالم دون حاجة إلى قلب ذلك المجتمع . فالعنف هنا مجرد انتفاضة جماعية . أما أسس نظرية قانون فمختلفة عن ذلك كل الاختلاف . فتورة الفلاحين في نظره ليست أسطورة إنها حقيقة واقعة . وهي ليست مجرد « وسيلة للعمل في الوقت الحاضر » بل هي وسيلة لقلب هذا الحاضر . فالعنف هو انبعاث وتجديد ضمن

مفهوم العمل الاجتماعي الفعّال .

ولعل فيما تقدم من التحدث عن قانون الفاشستي الجديد الأسود ، ما يكفي . على انه لا بد من الاشارة إلى ان رد الفعل لنظريات العنف عند بعض المفكرين الأحرار هو من « العنف » بحيث يثبت انهم عاجزون عن فحص فكرة ما ضمن نظامها العام . وبعبارة أخرى ، وعلى نحو أشد صراحة وتبسيطاً ، فإن هؤلاء المفكرين يقرون ان العنف على صعيد دولي وفي أثناء الحروب يكون أحياناً ضرورياً ، أما استخدام العنف بين الطبقات فهو عمل مؤذ هدام !

على ان الاعتراضات ضد مفهوم قانون للعنف لم تأت بالضرورة من البورجوازيين وحدهم . ذلك ان نغوين نفسه أشار ، في معرض الحديث عن قانون ، الى أن حروب التحرير لا تدوم الى الأبد وان التجارب العنيفة التي يتعرض لها الناس قد تخلق من المشكلات بقدر ما تحل . ولاحظ نغوين انه بعد تسعة أعوام من المقاومة العسكرية لم يجد كثيرون من المقاتلين الفيتناميين ما يفعلونه فعادوا الى الانغماس في تعاطي الافيون . وكان جيفارا نفسه قد اكتشف ان البناء الاجتماعي قد يبدو بطيئاً مملاً

إذا قورن بالهدم الاجتماعي .

ليس هنالك رجل واحد أو فلاح واحد يعتبر اجتماعياً خالصاً وعضواً في طبقة أو جذس خاص معين فقط . فعندما يقتل أحد خصوم طبقته أو أحد الظالمين يكون في الوقت نفسه قد قتل انساناً آخر . وكل عملية قتل هي من حيث الجوهر منافية للإنسانية . ان الفلاح يربح حربه ولكنه يخسر معركة خاصة . والشيء المثير للعجب هو انه ليس علينا الا ان نعود إلى قانون نفسه لكي نجد البرهان على ذلك . فسجل مرضاء النفسانيين لا يضم الضحايا وحسب بل يشمل مرتكبي العنف أنفسهم ايضاً . فلقد حدث مثلاً ان وضع احد المناضلين الافريقيين قبلة في مقهى فقتل عشرة أشخاص . ولكن هذا الرجل كان يعاني في نفس الوقت من كل عام قلقاً حاداً ويستولي عليه الأرق وتتملكه الرغبة في الانتحار . وأقدم جزائري ، تعرضت أمه لحادث قتل وحشي متعمد ، على قتل امرأة بيضاء وهي جاثية على ركبتها تستجدي الرحمة . ونتيجة لذلك أصبح الرجل يعاني من قلق حاد أدى الى نوع من الاضطراب العقلي . وهكذا فإن فهم نظرية قانون في العنف الانبعاثي يصبح أشد صعوبة حتى من خلال التجارب التي مرت بقانون نفسه . ويقال انه في أثناء

الفترة التي قضاها قانون في الدراسة في جامعة ليون كانت يده
ترتجف دون ان يتمكن من السيطرة على حركتها ، عندما كان
يقوم بتشريح الجثث .

وليس من شك في ان ما شاهده قانون في افريقيا السوداء ،
ولا سيما في غانا ، قد أثار سخطه الشديد . وهو يقول انه حيث
تمت ازالة الاستعمار على نحو تدريجي تطوري ولم يقترن ذلك بالعنف
نسبياً ، سيطر على الشعب المستقل المفكرون الأذكياء الذين
يلجأون الى النهب المشروع كعمليات التصدير والاستيراد
والصيرفة لخداع شعوبهم . ومهما يبلغ ما في هذا القول من الصدق
فلقد كان في وسع قانون ان يميز بين الاستعمار الاستيطاني
والاستعمار غير الاستيطاني ، بين تلك المستعمرات التي يقطنها
عدد كبير من المستعمرين البيض الذين يملكون فيها الارض
ويزرعونها (الجزائر ، كينيا ، روديسيا) وبين المستعمرات
الآخري التي لا تضم عدداً يذكر من المستعمرين المقيمين كما كانت
الحال في معظم أجزاء افريقيا الغربية . ففي النوع الثاني من
المستعمرات كان الحوار بين البرجوازية الوطنية المحلية والدولة
المستعمرة ممكناً في حين ان المستوطنين الاوروبيين في الجزائر
أو كينيا كانوا يتدخلون للحيلولة دون قيام الحوار المطلوب . ولم

يكن قانون يريد من الرجل الابيض ان يمنح الرجل الاسود شيئاً ، ولكن من الصعب انتزاع الاستقلال بالقوة حين يُقطع وعد بمنحه في وقت محدد من المستقبل . وقد لاحظ قانون نفسه ان نشوء عنف مناهض للاستعمار هو شيء يتناسب مع مدى القمع الذي يمارسه نظام الحكم القائم . ولكن إذا كان هدف الفلاحين الاول ، كما يقول قانون ، هو الاستيلاء على مزارع المستوطنين الاجانب فما الذي يمكن توقعه حين لا يكون هنالك مستوطنون ولا تكون ثمة مزارع للبيض ؟ كيف يمكن في مثل هذه الحالة ان يحال دون قيام حكم بوجوازي غير أصيل في مناهضة الاستعمار ؟

لقد كان قانون يريد ولادة قيصرية . كان يريد لافريقيا ان تمزق العلاقات القائمة بينها وبين اوروبا وان تحطم كذلك القيم والمفاهيم الاوروبية . « عندما أبحث عن الانسان في التكنيك والنموذج الاوروبيين ، لا أعث إلا على سلسلة من الغاءات الوجود الانساني وفيض من أعمال القتل » . وقال ايضاً ان اوروبا « تولت قيادة العالم بحماسة وأنانية وعنف ... لقد تخلت اوروبا كلياً عن التواضع ، ورفضت بعناد المحبة والرعاية والاهتمام ... ولهذا ، دعونا يا اصدقائي نمتنع عن الثناء على النهج الاوروبي

المتمثل بإقامة دول ومؤسسات ومجتمعات تستوحي مثلها من هذا النهج ... إن علينا ان نقلب صفحة جديدة ، وان نبتدع مفاهيم جديدة وان نحاول خلق انسان جديد (١٩) . وهكذا يكون قانون قد أدار ظهره لاوروبا . ولكن أترأه فعل ذلك حقاً ؟ فلقد كتب سارتر مرة (عام ١٩٤٨) يقول ان الشعر الزنجي نظمه شعراء زنوج ليطالعه قراء زنوج . وها هو الآن يعيد هذا القول موجهاً الحديث الى قرائه الاوروبيين : ان قانون كثيراً ما يتحدث عنكم ولكنه لا يتحدث مطلقاً اليكم ، انكم في نظره مجرد أفاع تسترق السمع الى حديث خاص . وفي كلتا الحالتين يكون إيراد الحقائق مجازاً مضللاً . فقد كان سارتر ، الرجل الفرنسي الأبيض ، هو الذي دُعي لكتابة مقدمة باللغة الفرنسية لكتاب نشر في باريس . ولقد كان قانون هو الذي أرسل مسودة كتاب « المعذبون في الارض » ، إلى سارتر آملاً ان يكتب له المقدمة كما فعل ذلك من قبل ديوب عندما دعم اطروحاته عن تاريخ الثقافة الافريقية بتقديمها الى مجلس من الفاحصين يتألف من عدد من أستاذة السوربون . والواقع انه من المؤكد ان قانون كان يخاطب النخبة المثقفة من ابناء العالم الثالث كما انه من المؤكد انه لم يتراجع قط أمام وجهة النظر

« الاوروبية » . ولكن ينبغي ان لا ننسى ان هنالك عدة نماذج لاوروبا : ألم يضع قانون في حسابه اولئك الاوروبيين الذين كما وصفهم هونفسه « يشعرون من وقت الى آخر باشعزاز شديد »؟ ومع انه ليس في الامكان استخلاص النيات من النتائج إلا انه مما لا جدال فيه ان مؤلفات قانون لقيت من العناية في الغرب منذ وفاته أكثر مما لقيته في العالم الثالث . فقد أسدل على مؤلفاته في افريقيا السوداء ستار من الصمت والاهمال .

ومن المعروف ان قانون توفي شاباً يافعاً . ولقد أوردت سيمون دي بوفوار آخر ما نطق به في حياته فقالت « استمر الحديث حتى الساعة الثانية صباحاً ، واخيراً قطعتة بأشدها استطيع من التهذيب وذلك بأن اوضحت له ان سارتر بحاجة الى النوم . فاستشاط قانون غضباً وقال ان الثوريين الجزائريين كالكوبيين لا ينامون مطلقاً أكثر من اربع ساعات ليلاً ... والتفت ان لانزمان قائلاً وهو يضحك : انني على استعداد لدفع ٢٠ الف فرنك يومياً لأتمكن من التحدث الى سارتر من الصباح الى المساء مدة اسبوعين . فكل شيء يتحدث عنه يبدو أمام عيوننا وكأنه يحيا من جديد (٢٠) » .

كان داء اللوكيميا الخبيث الذي اصيب به حاداً فانتكس

بعد تحسن . فاضطر الى السفر الى واشنطن للعلاج وهناك ترك وحيداً في حجراته من احد الفنادق طيلة عشرة ايام . وانضم اليه فيما بعد زوجته ونجله الذي كان يبلغ من العمر ستة أعوام فقط . ولقد غير أطباء المستشفى دمه كله . وصدر كتابه « المعذبون في الارض » في باريس . وقرأته عليه لدى صدوره زوجته نفسها . كان قانون لا يثق بالولايات المتحدة التي كان يعتبرها مجتمعاً عنصرياً . وفي آخر صباح شهادته عيناه قال لزوجته حيناً أفاق من النوم « لقد وضعوني الليلة الماضية في جهاز القسيل .. » كان قد أصيب إصابة حادة بذات الرئة .

وفي شهر كانون الاول من عام ١٩٦١ لفظ انفاسه الاخيرة . وقام الجزائريون بنقل جثمانه بالطائرة الى الجزائر حيث ووري التراب في مقبرة تضم رفات شهداء جيش التحرير الجزائري . وكان عمره ستة وثلاثين عاماً ...

٧- قانون مُنذگان قانون

كان الفلاح الافريقي ولا يزال غير منفتح على افكار قانون الذي ظل اسمه مجهولاً لديه . أما النخبة الافريقية فإنها تدير له ظهرها . فأفرادها لا يودون ان يسمعوها ما يقوله . ولكن في غضون ذلك يكتشف المناضلون السود في امريكا ، قانون ...

ان أكثرية الدول الافريقية يسودها اليوم حكم الحزب الواحد أو حكم الجيش . ويعقب روجر بارتارد على ذلك فيقول : « ومع ذلك فان دولة الحزب الواحد ظلت في جميع مؤلفات قانون افتراضاً لا جدال فيه .. »^(١) ويقول إرفنغ هو موافقاً على ذلك « ان قانون يريد اشراك الجماهير ، وعلى الرغم من ذلك تبقى الدولة ذات الحزب الواحد طيلة كتابه ، افتراضاً

لا يرقى اليه الشك « (٢) وهذا ، في رأي هو ، « يعني ان جماهير الشعب تمثل وتبدو كأنها تشارك بالحكم ولكنها لا تشترك في الحقيقة في اتخاذ القرارات . فما الذي يريد قانون قوله في الواقع ؟ لقد كتب يقول عن الوضع في افريقيا « ان الحزب الواحد هو الشكل المصري لدكتاتورية البرجوازيين دون ستار او دهان أو رتوش ودون ضمير » وأضاف يقول « ان جميع احزاب المعارضة التي هي عادة بالاضافة الى معارضتها تقدمية النزعة وبالتالي فهي ميالة لتحقيق قدر أكبر من نفوذ الجماهير ومشاركتها في الشؤون العامة ، والتي تحب ان ترى الطبقة البرجوازية المتعجرفة العاكفة على تنمية ثروتها جاثية على ركبتها ، هذه الاحزاب قد زج بها ، بناء على تهمة ملفقة ، في السجون واجبرت أول الأمر على التزام الصمت ثم على العمل في نطاق السرية (٣) » .

ان المثل الأعلى الذي ينشده قانون ينطوي على تشكيل حزب واحد ثوري أصيل تكون قاعدته الأساسية من الفلاحين . ولم يكن من دعاة حزب الدولة الواحد كما كان الاتجاه سائراً حينذاك في افريقيا كما لم يكن من دعاة تقديس الزعيم . وكان نكروما الذي يطلق عليه لقب « اوساغيفو » حيناً و « المسيح »

حيناً آخر ، يعتبر قانون « صديقه » . بيد ان من الواضح أن قانون كان يضع نصب عينيه « اوساغيفو » بالذات عندما وصف زعيم الحزب الافريقي بأنه الرئيس العام لتلك الشركة التي تضم المنتفعين الذين يترقبون جني الأرباح بصبر نافذ والتي من البورجوازيين الوطنيين ... ان استقامة الرئيس التي تعبر عن نزاهته الحقيقية ، تنهار شيئاً فشيئاً .

ان كتاب سارتر « نقد المنطق الديالكتيكي » يشكل معضلة مثيرة للحيرة . فحسب الفئات الاجتماعية-التاريخية التي ذكرها تعتبر الطبقة الاجتماعية طبقة « جماعية » وليس في وسع هيئة جماعية ان تحكم « فالجماعة » الموحدة الصغيرة نسبياً هي وحدها التي تستطيع ان تحكم كاليقوبيين والبولشفيك والكاسترويين في كوبا . ولكن الجماعات تهزم من خلال انتصاراتها الخاصة نفسها ، ذلك ان فترة المثالية الثورية تتراجع أمام الجمود والانانية اللذين تتصف بهما السلطة عادة . ولقد لاحظ سارتر بعد الزيارة التي قام بها لكوبا عام ١٩٦٠ ما يلي :

« ان ما يحمي الثورة الكوبية اليوم - وما يحميها وربما لمدة طويلة قادمة - ان الثورة هي التي تهيمن على البلاد » . ومن

الواضح ان هذا هو المثال الذي أراده فانون لافريقيا ولكن مثل هذه الحالات شيء نادر .

اما سنغور فإنه يعتبر المعارضة مرادفة للخيانة وأعمال التخريب فيقول مثلاً : « في هذه القضية يكون أي تساهل بمثابة خيانة للشعب » . ويقول سيكوتورى : « ان الحزب يمثل أفكار شعب غينيا في أعلى مستوياتها وأتم أشكالها » . ويقول نكروما : « الحزب هو الدولة والدولة هي الحزب » . أما جون تنغا السكرتير العام لمؤتمر نقابات العمال فقد قال في اثناء انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٠ : « سنقوم بتحليل أوراق الاقتراع في كل دائرة انتخابية على حدة ، وسنعرف بذلك الأماكن التي رفض سكانها التوجه إلى صناديق الاقتراع للتصويت . ول هؤلاء ان يتأكدوا من اننا سنتخذ الاجراءات الضرورية لمعاقبة من يخون قضيتنا .. » وبعد بضعة أشهر علق فانون على ذلك ، وهو يضع - بلا شك - غانا نصب عينيه فقال : « في هذه الظروف يقترح ٩٩،٩٪ من الناخبين لمصلحة مرشح الحكومة ... أما زعماء الحزب فيتصرفون وكأنهم ضباط جيش .. »^(٤) .

وفي كل من الكونغو وداهومي وجمهورية افريقيا الوسطى
وفولتا العليا ونيجيريا وغانا وسيراليون ومالي سيطرت على البلاد
حكومات منبثقة من انقلابات عسكرية ...

أما في الدول العربية فيصعب علينا احيانا ان نميز بين الحكومة
المدنية والحكومة العسكرية . ولكن الحكومة تفعل كل شيء
باسم الشعب .

ولقد تكهن فانون بذلك فكتب يقول : انه كلما اشتدت
وطأة دكتاتورية الحزب الواحد وكلما ازدادت المعارضة الجماهيرية
قوة ، يصبح الجيش بقيادة مجموعة من الضباط ذوي الروح
المتعالية هو الحكم والفصل بين الجانبين . وأضاف يقول : ان
تاريخ امريكا اللاتينية يعيد نفسه .

والواقع أن ما يلفت الانظار في آراء فانون هو اصراره على
الحاجة الى الفصل بين الحكومة والحزب . فالحزب ينبغي ان لا
تتوفر فيه فرص للاحتراف ، بل ينبغي ان يكون مجرد وسيلة
للتوصل الى معرفة احتياجات الشعب ، وينبغي كذلك ان لا
يكون مركزياً حتى يصبح في وسعه استلهاام رغبات الناس في

المناطق والأقاليم المحلية . فقد كان قانون لا يثق بالمدن الكبرى والعواصم الزاخرة بالثروة . ففي الاجتماعات التي تعقدتها الفروع المحلية وحدها يستطيع الفلاحون أن يشاركوا في تصريف أمور الشعب ، وهنا فقط تلتهب شعلة الشعب الصافية . ومعنى ذلك ان قانون وان لم يكن متحرراً فوضوياً يدعو إلى القضاء على جميع المؤسسات السياسية والإدارية على الفور إلا أنه يشارك الأحرار الفوضويين سوء ظنهم الأسامي فيما يمكن أن تسببه السلطة للناس . وكان يدعو على الدوام إلى أن تتحمل القواعد الشعبية مسؤوليات جماعية وأن تكون على القمة قيادة جماعية . ولا شك أن الدعوة إلى ذلك قولاً أسهل من تنفيذها بالفعل . فكيف يمكن التوفيق بين التخطيط والديمقراطية ؟

والواقع أن قانون كان من بعض الوجوه « ميلوفان دجيلاس » العالم الثالث . ففي كتابه « المعذبون في الأرض » لاحظ وسجل ما لاحظته وسجله دجيلاس في كتابه « الطبقة الجديدة » - انتقال زمام السلطة إلى طبقة حاكمة جديدة تتمتع بنفوذ سياسي أكثر مما هو اقتصادي . وفي إفريقيا نجد أن هذه الطبقة متطابقة إلى حد كبير مع الطبقة البورجوازية المستعمرة ومنبثقة منها . وهذه الطبقة الجديدة تضع ما تسميه تشريعات « اشتراكية » بغية

السيطرة على الاقتصاد الوطني ونهبه . فالفضائح مستشرية والوزراء ينقلبون أثرياء يغمرون زوجاتهم بالزينة والحلي . وقل مثل ذلك باعضاء البرلمان بل بكل مسؤول من القمة حتى الشرطي البسيط أو مأمور الجمر ك ، فكلهم يشتركون في موكب الفساد ^(٥) . ففي داهومي مثلاً كانت مرتبات موظفي الحكومة في أوائل الستينات تغطي ٦٠ ٪ من مجموع ميزانية الدولة . وفي بعض مناطق المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا الغربية يتقاضى أعضاء البرلمان الذين يعملون ثلاثة أشهر فقط في العام الواحد مرتبات سنوية يبلغ معدلها ما يساوي دخل فلاح متوسط من المنطقة خلال ثلاثة وسبعين عاماً .

ومع ان القادة الافريقين أنفسهم كثيراً ما لفتوا الانظار إلى هذه الظاهرة الا ان ذلك لم يجد نفعاً . وفي نيسان ١٩٦٢ حذر فيريري من انه من المحتمل ان يحصل محل الاوروبيين والاسبويين الذين يتمتعون بامتيازات خاصة « طبقة من الافريقين المتعلمين تتمتع بامتيازات دائمة » . وقبل ذلك بعام واحد تحدث نكروما من المدياع وقال للشعب : « انني اعرف ان شرور المحسوبية لها مكان رحب في مجتمعا » . ونتيجة لذلك طلب من السياسيين الغانيين أن يسلموا ما تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني من

ممتلكاتهم وهو مبلغ يعادل ما قد يدخره الفلاح في غضون ٤٠٠ عام اذا لم ينفق بنساً واحداً من دخله .

وهكذا كان قانون في افريقيا صوتاً ضائعاً في الصحراء . ولكنه لم يضع في الولايات المتحدة . اذ يقال ان دان واتس رئيس تحرير مجلة « ليبريشن » قال لأحد الصحفيين في أعقاب الاضطرابات التي نشبت في شيكاغو عام ١٩٦٧ : « قانون ... يحسن بك ان تقتني هذا الكتاب . فكل أخ هنا يستطيع أن يقتبس شيئاً من أقوال قانون » . ونحن نجد فيه روى جوتز يستشهد بقانون كما نجد ستوكلي كارمايكل يقول إنه يعتبر قانون من القديسين . ويركز كارمايكل بشوع خاص على تنفيذ قانون بالقيم الخلقية الغربية ودعوته إلى خلق انسان جديد وإلى تضامن الأمريكيين السود مع شعوب العالم بأنه « لعبة لون البشرية » . ولكن الحقيقة ان قانون لم يقصد إلى ذلك ، وان كان من الممكن ان يتحول الامر على هذا النحو . اذ من المحتم أن ينشأ تعاطف بين أولئك الذين عانوا من عجرفة الجنس الابيض وظلمه . ولكننا اذا التفتنا إلى الحالة الاجتماعية على نحو موضوعي نجد ان كارمايكل يسيء عرض أفكار قانون عندما يقول : « ان الطبقة العاملة الامريكية تتمتع بجني ثمار أتعاب عمال العالم الثالث .

وبذلك يكون العالم الثالث قد أصبح هو الطبقة الكادحة كما أصبح المجتمع الغربي الأبيض هو الطبقة البورجوازية»^(٦) . بيد ان قانون لم يقصد ذلك . فإذا صح ان العمال البيض في الولايات المتحدة يتمتعون بثمار الآخرين فإن العمال السود يفعلون ذلك أيضاً لان كلا الفريقين يعمل ضمن نفس النظام الاقتصادي للاستعمار الجديد وان كان السود يفعلون ذلك على مستوى أدنى . بل انه وصف الطبقة العاملة الافريقية بأنها «طبقة البورجوازيين» بالنسبة للفلاحين ، مع انها هي نفسها ، كما قال ، تتمتع بمستوى معيشة أدنى مما تتمتع به الطبقة المقابلة من الزوج الامريكيين . أما قانون فيقول : «ان زوج شيكاغو وحدهم لا يشبهون النيجريين أو التزانيين الا من حيث انهم جميعاً يُعرفون بالنسبة إلى البيض»^(٧) . ولقد عرف قانون الظلم العنصري فيما بعد ، تعريفاً ضرورياً لحالة المستعمرين ولكنه غير كاف .

والمح في إحدى كتاباته الى حق الزوج الامريكيين باللجوء الى العنف المسلح ، وليس هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بانه كان سيعارض استخدام هذا العنف . بل على النقيض من ذلك كان قانون يؤمن بحق المضطهدين في ان يلجأوا الى العنف الاجتماعي والعنصري . ولقد قال في الواقع عام ١٩٦٠ إن اللجوء الى ذلك قد يكون

ضرورياً - ومرة أخرى كانت حالة السود الامريكيين في نظر
فانون تختلف عن حالة السود الافريقيين ، فقد قال « ان مشكلة
الحقوق المدنية التي يتصارع خلالها كل من البيض والسود في امريكا
صراعاً يتناول التفرقة العنصرية هي مشكلة ذات صلة ضئيلة
بالمبادئ والاهداف التي يحارب من أجلها شعب انغولا حربه
البطولية ضد الاستعمار البرتغالي البغيض ^(٨) » . وبعبارة اخرى
لم يكن فانون يتكهن بقيام روح فضالية انفصالية لدى زنوج
الولايات المتحدة . فقد كان الانطباع الذي تركه في نفسه الكتاب
الأمريكيون السود الذين اجتمع بهم في مؤتمر باريس المعقود عام
١٩٥٦ يدل على ان المواقف التي يتخذونها والمشكلات التي
يواجهونها والمطامح التي يحملون بها تختلف كل الاختلاف عما يقابلها
لدى السود المستعمرين في افريقيا . وأشار في كتابه « البشرة
السوداء والأقنعة البيضاء » بعبارات غامضة ، الى الساحة
الامريكية للمعركة العنصرية ولكنه تكهن بقيام نصب تذكري
بارز من خلال تلك التربة الدموية « وعلى قمة ذلك النصب ،
استطيع ان أشاهد رجلاً ابيض وآخر أسود يضع كل منهما يده
في يد الآخر ^(٩) » . ترى ! لو قدر له ان يمتد به العمر مدة أطول
أكان يتخلى عن الحلم كلياً ؟ لقد وضع الدريدج كليفر ، وهو من

مناضلي القوة السوداء ومن المعجبين بالكولم إكس ، كتاباً أسماه « الروح فوق الجليد » ردد فيه بقوة أصداء نضال فانون المبكر في سبيل اكتشاف هوية نفسه وتحقيق ذاته ضمن مجتمع حضاري أبيض . ان اعتراف كليفر « بأن في الولايات المتحدة اليوم جيلاً من الشباب البيض الجدير باحترام الرجل الأسود .. » وصحة هذا القول ، ربما شكل فرصة لتحقيق موقت لحلم فانون بإقامة مجتمع ذي عنصرين يضع الواحد منها « يده في يد الآخر » .

ومن الطبيعي ان الكتاب يكتب ثم يقرأ ، وحق حين لا يقرأ بدقة متناهية فإن رسالته تتكون ، الى حد ما ، من الافكار التي يحملها القاريء عن ذلك الكتاب . وهكذا ، عندما نجد كارمايكل وتشارلز في هاملتون يدعوان نفسها « بالامريكيين الافريقيين » ويشيران الى « تراثها الثقافي الافريقي » ، قد يصبح من غير الوارد ان يكون فانون قد اعتبر « الزنجية » تقديساً مرحلياً مصيره الزوال . فليس هنالك أية علامة أو أثر لوجود أي « تراث ثقافي افريقي » في كتابات فانون نفسه . ولكن الدور الموضوعي الذي تلعبه اسطورة لون البشرة يختلف باختلاف الحالة وطبقاً للتركيب العقائدي العام الذي يمثل لون البشرة عنصراً من عناصره . فالاشتراك بين الامريكيون السود مثل

كارمايكل يستخدمونه لتطوير التقاليد الخلاقة التي أسسها و.ي دبويس في حين ان رجلاً سياسياً متطرفاً مثل مالكولم اكس يستخدمه ، وقد استخدمه بالفعل ، على نحو يقوده الى سراب .

ومع ان مالكولم اكس هو ، دون شك ، شخصية لامعة ومناضل كرس نفسه باخلاص لقضية الزواج إلا ان ما سجله عن رحلته الى مكة والشرق الاوسط وافريقيا عام ١٩٦٤ جدير بأن يثير دعر قانون . فقد اكتشف مالكولم اقطاراً ومجتمعات حضارية يتعايش فيها الرجل الابيض مع الاسود دون أي تمييز ويتمتع فيها كل من الجانبين بكرامته وينعم فيها الملونون بالسيطرة على بلادهم . ولكن التركيز الكلي على لون البشرة والعنصر حمل الناطق بلسان زواج حي هارلم على ان يعبر عن امتنانه العميق للاستقبال الفخم والاحتراف اللذين لقيهما من الامير فيصل و كوامي نكروما أي اولئك الذين يمثلون نوع الطبقة الحاكمة التي كان قانون يكن لها أشد الكراهية . أما مالكولم اكس فلم يخطر بباله ان يلتفت ، وهو يقطع الطريق من المطار الى القصر الذي يذهب اليه ثم من القصر الى المطار ، الى المنظر المزري للفلاحين الذين يجوبون الطرق لبيع منتجاتهم بأبخس الأثمان .

ذلك ان قانون كان اشتراكياً وبالتالي عدواً للرأسمالية والاستعمارين القديم والجديد معاً . وكان رجلاً ثورياً مناهضاً للتمييز العنصري يؤمن بالحق في استخدام العنف لتحقيق الذات ويجدوى ذلك وانسجامه مع المثل الانسانية . وكان الى ذلك كله مناهضاً لحكم النخبة والاقلية التي تنعم بالامتيازات الخاصة بصرف النظر عن التسمية التي تطلق عليها ، ثم هو بطل الدفاع عن أفقر فئات سكان الكرة الارضية أي فلاحى العالم الثالث . ان قانون لم يكن عنصرياً . ومع ان التجارب التي مرت به والألم والذل اللذين تعرضت لهما حياته الخاصة ، كل ذلك يتناول ، دون شك ، الشعوب السوداء وحدها ، إلا ان فلسفته الاجتماعية تتناول الشعوب السوداء والبيضاء على السواء . لقد ندد بتاريخ اوروبا وقيَمها الخلقية ومثلها العليا خلال عهد الاستعمار الرأسمالي ولكنه فعل ذلك في ضوء المفاهيم الثورية الاوروبية نفسها . فليس في افكاره انفصال تام عن التطور العقائدي الاوروبي . فلكل حركة جديدة جذورها الممتدة من التراث القديم . ولقد اضاف قانون الى التراث القديم وأغناه .

المراجع

الفصل الأول : بشرة سوداء وأقنعة بيضاء .

- ١ - فانون ، بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، ص ١١٦ .
- ٢ - المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
- ٣ - أنظرو . هـ . غريرو ب . م . كوبس ، الغضبة السوداء ، نيويورك ، ١٩٦٨ .
- ٤ - فانون ، « مواطنو جزر الانتيل والافريقيون » من كتاب « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٢٧ .
- ٥ - ج بلدوين « الحريق في المرة القادمة » ، لندن - ١٩٦٥ ، ص ١٦ .
- ٦ - « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » . ص ١٢ - ص ٢٢٧ .
- ٧ - و . مانوني ، بروسبيرو ، كالبيان - « سيكولوجيا الاستعمار » ، ترجمة ب . بوسلاند ، لندن ١٩٥٦ .
- ٨ - المصدر نفسه ، ص ٨٥ .
- ٩ - م . فورتس و ي . ايفانز - برتشارد ، الأنظمة السياسية الافريقية ، لندن ، او كسفورد ، ١٩٦٦ .

١٠ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، ص ٢٢٤ .

١١ - المصدر نفسه ، ص ١٤ .

الفصل الثاني : الروح الزنجية - السراب الأسود .

١ - مقتطفات من الشعر الزنجي الحديث بلغة الملاغاشي ، باريس المطابع الجامعية الفرنسية ، ١٩٤٨ .

٢ - ج جاهن « تاريخ الأدب الفريقي الجديد » ترجمة او . كوبرون و يو . لهر برغر ، لندن ، فابر ، ١٩٦٨ .

٣ - أ سيزير ، مذكرات الحنين للعودة إلى أرض الوطن ، ١٩٥٦ .

٤ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ١٢٥ .

٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

٦ - « « ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .

٧ - ر. رايت « المواطن من السكان الاصليين » ، نيويورك ، ١٩٦٤ .

٨ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ٢٠٣ .

٩ - ج. بلدوين « الأمراء والدول » من كتاب « لا أحد يعرف اسمي » لندن ، ١٩٦١ .

١٠ - فانون ، « المعذبون في الأرض » ص ١٨٨ .

الفصل الثالث : فلسفة جديدة تتحفز .

- ١ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء - ص ٨٨ .
- ٢ - المصدر نفسه ص ١٤ .
- ٣ - ر. د. لينغ « سياسات الخبرة » ، لندن - ١٩٦٧ .
- ٤ - المعتذبون في الأرض ص ٣٨ .
- ٥ - ديالكتيك التحرير (د. كوبر) ، لندن - ١٩٦٨ - ص ١٥٠ .
- ٦ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ص ٨١ .
- ٧ - قانون - « في سبيل الثورة الافريقية » .

الفصل الرابع : الجزائر .

- ١ - المعتذبون في الأرض - ص ٢٥٢ .
- ٢ - المصدر نفسه .
- ٣ - غانغرين ، كتب المقدمة ب . بنسون ، لندن - ١٩٥٩ .
- ٤ - « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٩٠ وص ٧٨ .
- ٥ - قانون « دراسات لاستعمار في طريق الانهيار » ص ١٤٩ .
- ٦ - س. دى بوفوار ، « قوة الظروف » ص ٥٩٦ .
- ٧ - دراسات لاستعمار في طريق الانهيار ، ص ١١٤ .
- ٨ - س. رودي « التحرير والعنف في الجزائر » من كتابه

دراسات لليسار ، ١٩٦٦ ، ص ٨٦ .

٩ - أ . جيللي ، مقدمة لكتاب «دراسات لاستعمار في طريق
الانهيـار» ص ٩ .

الفصل الخامس : جزر الانتيل وافريقيا والعالم الثالث .

١ - دي يوفوار المرجع السابق ص ٥٩٥ .

٢ - A. Malraux, Anhimémoires, Paris, Gallimard, 1967, P. 166.

٣ - المصدر نفسه ص ١٦٨ .

٤ - المعذبون في الارض ص ٧٦ .

٥ - ب . لومومبا . « بلدي » الكونغو « ترجمة ج . هيث ،
لندن ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢ .

٦ - سي . كروز اوبرين « الى كاتنغاثم العودة منها » لندن ،
هتشنسون ، ١٩٦٢ .

٧ - « الوجود الافريقي » ١٩٦٢ ، ص ١٢٦ .

٨ - « في سبيل الثورة الافريقية » ص ٢٠٦ .

٩ - « الوجود الافريقي » ١٩٦٢ ، ص ١٢٧ .

١٠ - ف . استامبولي « فرائز قانون » - مراجعة معهد العلوم

الاجتماعية - رقم ٢ / ٣ ، ١٩٦٧ ، ص ٥٣٣ .

الفصل السادس : حول الثورة والعنف .

- ١ - م . بابلو « المدانون باللعة في الحياة الدنيا » ، ١٩٦٢ ، ص ٦٢
- ٢ - ن . نغي ، « فراتز فانون » ، الفكرة ، ١٩٦٣ - ص ٢٩
- ٣ - راجع و . فريد لاندوسي . روزنبرغ « الاشتراكية الافريقية » ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٤ .
- ٤ - المذبون في الارض ص ١٠١ .
- ٥ - المصدر نفسه ص ١٠٣ .
- ٦ - أ . زولبرغ « فراتز فانون » ، ١٩٦٦ ، ص ٦٦ .
- ٧ - ف . غوتيل « قانون واقتصاديات الاستعمار » ص ٧٤ .
- ٨ - المذبون في الارض . ص ١١٧ .
- ٩ - المصدر نفسه . ص ١٩٧ .
- ١٠ - بشرة سوداء واقنعة بيضاء . ص ١٠ و ص ١١ .
- ١١ - المذبون في الارض - ص ١١٨ .
- ١٢ - ج.ب . سارتر - مقدمة كتاب « المذبون في الارض » ص ١٨ و ص ١٩ .
- ١٣ - المذبون في الارض - ص ٧٤ .

- ١٤ - الوجود الافريقي - ١٩٦٢ ، ص ١١٩ .
- ١٥ - المصدر نفسه ، ص ١٢٦ .
- ١٦ - ج . سوريل ، « انعكاسات على العنف » ، باريس ، م .
ريفيير ١٩٥٠ ، ص ٣٨٩ .
- ١٧ - هـ . ارندت « انعكاسات على العنف » ١٩٦٩ ، ص ٢٩ .
- ١٨ - سارتر - المرجع السابق ، ص ١٢ و ص ١٣ .
- ١٩ - المذبون في الارض ، ص ٢٥٢ و ٢٥١ و ٢٥٤ و ٢٥٥ .
- ٢٠ - دي بوفوار ، المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

الفصل السابع : « قانون منذ كان قانون .

- ١ - ر . بارتارد فرائز قانون ، ١٩٦٨ ، ص ١٢ .
- ٢ - ي . هو . العمل الدائب ، ١٩٦٦ ، ص ٧٧ .
- ٣ - المذبون في الارض ص ١٣٢ - ص ١٤٧ .
- ٤ - المصدر نفسه ١٤٦ - ١٤٧ .
- ٥ - المصدر نفسه ص ١٣٨ .
- ٦ - ديالكتيك التحرر ص ١٦٥ .
- ٧ - المذبون في الارض ص ١٧٣ - ١٣٤ .
- ٨ - المصدر نفسه - ص ١٣٤ .
- ٩ - بشرة سوداء واقنعة بيضاء - ص ٢٢٢ .

نبذة عن حياة فانون

- ١٩٢٥ ولد في جزر الأنتيل الفرنسية .
 تابع دراسته فيما بعد في جزر المارتنيك وفرنسا .
 ١٩٤٤ تطوع في الجيش الفرنسي وخدم في أوروبا .
 بعد انتهاء الحرب ، درس الطب وعلم النفس في جامعة ليون .
 تولى رئاسة تحرير صحيفة قوم - قوم التي توزع على الزوج من الطلبة .
 ١٩٥١ ظفر بشهادته العلمية في الطب .
 ١٩٥٢ أصدر كتابه « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » ، في باريس .
 ١٩٥٣ تزوج .
 وقع عليه الاختيار ليشغل مركز رئيس دائرة الطب النفسي في
 مستشفى بليدا - جوينفيل بالجزائر .
 ١٩٥٤ اندلعت نيران الثورة الجزائرية .
 ١٩٥٤ - ٥٦ كان يعمل على تقديم العون للشوار الجزائريين .
 ١٩٥٦ استقال من العمل في مستشفى بليدا - جوينفيل .
 حضر اول مؤتمر للكتاب والفنانين السود في باريس .
 تولى الاشتراك في تحرير صحيفة المجاهد الناطقة بلسان جبهة التحرير
 الجزائرية والتي كانت تصدر حينذاك في تونس .
 ١٩٧٥ - ٥٨ حضر المؤتمر الافريقي في باماكو وكوتونو .
 ١٩٥٩ اصيب بجروح بالغة لدى انفجار لغم على الحدود الجزائرية المغربية .
 اصدر كتاب « السنة الخامسة من الثورة الجزائرية » باريس .
 ١٩٦٠ اختير سفيراً للحكومة الجزائرية الموقته في غانا .
 سافر في رحلة الى مالي ليستطلع امكانات فتح طريق جنوبية لتموين
 الشوار في الجزائر . ونجا من محاولة فرنسية لاختطافه . اصيب
 بداء اللوكيميا ثم توجه الى الاتحاد السوفيتي للعلاج .
 ١٩٦١ اصدر كتاب « المذبذبون في الارض » ، باريس (كانون الاول) .
 توفي في المستشفى في واشنطن ثم دفن في الجزائر .
 ١٩٦٢ استقلال الجزائر .
 ١٩٦٤ نشر كتابه « في سبيل الثورة الافريقية » - باريس .

محتويات الكتاب

صفحة

| | |
|-----|---|
| ٥ | ١ - بشرة سوداء وأقنعة بيضاء |
| ٣١ | ٢ - الزنجية او السراب الأسود |
| ٤٩ | ٣ - فلسفة في مرحلة انتقالية |
| ٦٥ | ٤ - الجزائر |
| ٩٢ | ٥ - جزر الأنتيل وافريقيا والعالم الثالث |
| ١١٤ | ٦ - حول الثورة والعنف |
| ١٥٦ | ٧ - قانون منذ كان قانون |

طبع في



سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر

يتنازع عصرنا الحاضر بالانفتاح الفكري والتفاعل الثقافي لا على الصعيد الاقليمي او القومي وحسب بل وعلى الصعيد العالمي أيضاً . ومن هنا كانت ضرورة الاهتمام الواعي الجاد بها يطرأ من تطورات فكرية وما يستجد من نظريات وتيارات ، أي ضرورة الاطلاع على آراء تلك الشخصيات التي تمارس تأثيراً سياسياً وفكرياً رئيسياً في عالمنا المعاصر . وقد قوخيئنا من نشر سلسلة اعلام الفكر العالمي ان نقدم للقارئ العربي اهم ما كتب في اللغات الاجنبية عن مفكرين طالما اراد القارئ المثقف مطالعة مجمل نظراتهم وافكارهم على شكل دراسة جامعة موحدة مترجمة بدقة وبدون تعقيد . وسوف تشمل هذه السلسلة دراسات عن فانون وماركوز وجيفارا وغيرهم من ابرز مفكري العصر .

نبدأ هذه السلسلة بفرانز فانون الطبيب النفسي المارتينيكي الذي انضم الى الثورة الجزائرية وقضى وهو يعمل في صفوفها ، والذي يعتبر من ابرز من تحدث باسم العالم الثالث ومن اعمق من تحدث عنه . وفي هذا الكتاب يعرض دافيد كوت آ بفهم عميق وتفاد نادر .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت